

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق

العدد ١٣٣٩ : هـ الموافقة ١٩٢١ م
تشر في دمشق مرة في اشهر

كانون الثاني وشباط سنة ١٩٤٢ م
الحرم وصفر سنة ١٣٦١ هـ



دمشق

المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي { في سورية ولبنان ٣٠٠ قرش سوري
وفي جميع الاقطار ٤٠٠ = =

الدفع مقدماً

مطبعة الترقى بدمشق

اعضاء المجمع العلمي العربي

في سنة ١٣٦١ هـ ١٩٤٢ م

عدد	الاسم	محل الإقامة	عدد	الاسم	محل الإقامة
١	السيد محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي	دمشق	٢٦	الدكتور نقولا فياض	بيروت
٢	الدكتور اسعد الحكيم	«	٢٧	السيد عيسى اسكندر معلوف	زحلة (لبنان)
٣	الشيخ بهجة اليطار	«	٢٨	حارث التكريدي	عينة (لبنان)
٤	السيد خليل مردم بك	«	٢٩	الشيخ احمد رضا	جبل عامل
٥	رشيد بقدونس	«	٣٠	سليمان ظاهر	
٦	سليم الجندي	«	٣١	سليمان احمد	اللاذقية
٧	شفيق جبيري	«	٣٢	السيد ادوار مرقس	«
٨	الشيخ عبد القادر المبارك	«	٣٣	الشيخ محمد زين العابدين	انطاكية
٩	عبد القادر المغربي	«	٣٤	السيد محمد اسعاف النشاشيبي	القدس
١٠	السيد عز الدين التنوخي	«	٣٥	عبد الله مخلص	«
١١	فارص الخوري	«	٣٦	الشيخ رضا الشيباني	بغداد
١٢	الدكتور مرشد خاطر	«	٣٧	الاب انستاس ماري الكرملي	«
١٣	السيد معروف الارناؤوط	«	٣٨	السيد كاظم الدجيلي	«
١٤	الامير مصطفى الشهابي	«	٣٩	مروفي الرصافي	«
١٥	الشيخ بدر الدين النماني	حلب	٤٠	طه الراوي	«
١٦	راغب الطباخ	«	٤١	الشيخ محمد بهجة الانزي	«
١٧	عبد الحميد الجابري	«	٤٢	مصطفى باشا عبد الرازق	مصر
١٨	عبد الحميد السكيالي	«	٤٣	السيد عبد العزيز البشري	«
١٩	السيد سوريوس افرام	حما	٤٤	السيد خليل ثابت	«
٢٠	الشيخ ابراهيم منذر	بيروت	٤٥	أحمد بك أمين	«
٢١	فؤاد الخطيب	«	٤٦	السيد أحمد حسن الزيات	«
٢٢	السيد بولس الخولي	«	٤٧	محمد لطفي جمعة	«
٢٣	عمر الفاخوري	«	٤٨	الدكتور أحمد عيسى بك	«
٢٤	النيكونت فيليب دي طرازي	«	٤٩	أحمد لطفي السيد باشا	«
٢٥	الشيخ مصطفى الغلايني	«	٥٠	السيد خير الدين الزركلي	«

أعضاء المجمع العلمي العربي

٤

عدد	الاسم	محل الإقامة	عدد	الاسم	محل الإقامة
٥١	الدكتور أمين باشا المملوك	٥٠ مصر	٧٠	السيد هوتما	محل الإقامة
٥٢	خليل مطران بك	«	٧١	« أراندونك	هولادة
٥٣	السيد عباس محمود العقاد	«	٧٢	« كريسكو	«
٥٤	الشيخ محمد الحضر حسين	«	٧٣	« بروكين	انكارة
٥٥	السيد حسن حسني عبدالوهاب	تونس	٧٤	« هارتمان	المانية
٥٦	الشيخ عبد الحفي الكسائي	فاس	٧٥	« ميتفوخ	«
٥٧	الامير شبيب أرسلان	لوزان	٧٦	« زرتستين	السويد
٥٨	السيد عبد العزيز اليميني الراجكوتي	الهند	٧٧	« اوستروب	الدانمارك
٥٩	« عباس إقبال	طهران	٧٨	« مويك	فينا
٦٠	« مارسيه	تونس	٧٩	« ماهر	بودابست
٦١	« مامه	الجزائر	٨٠	« كوفالكي	بولونية
٦٢	« كولان	رباط (مراكش)	٨١	« كراتشكوفسكي	ليننراد
٦٣	« كي	«	٨٢	« موزل	براغ
٦٤	« دوسو	باريز	٨٣	« كريسكو	فلاندة
٦٥	« ماسينيون	«	٨٤	« ماكدونالد	أميركا
٦٦	« يوفنا	«	٨٥	« هرزفلد	«
٦٧	« آسين بلاسيوس	بحر (اسبانيا)	٨٦	« فيليب حتي	«
٦٨	« لويس	لشبونة (البرتغال)	٨٧	الدكتور سعيد أبو حمرة	البرازيل
٦٩	« هيس	سويسرة			

اعضاء المجمع العلمي الراحلون

عدد	الاسم	محل الإقامة	عدد	الاسم	محل الإقامة
١	الشيخ طاهر الجزائري	دمشق	٣	السيد مالنجو	دمشق
٢	« معمود الكواكي	«	٤	الشيخ سليم البخاري	«

أعضاء المجمع العلمي الراحلون

عدد	الاسم	محل الإقامة	عدد	الاسم	محل الإقامة
٥	السيد إلياس قدسي	دمشق	٣٥	السيد مصطفى صادق الرافعي	مصر
٦	: أنيس سلوم	"	٣٦	أحمد كمال باشا	:
٧	: جميل العظم	"	٣٧	أحمد تيمور باشا	:
٨	: سليم دنحوري	"	٣٨	السيد مصطفى لطفي المنفلوطي	:
٩	: عبد الله رعد	:	٣٩	الدكتور يعقوب صروف	:
١٠	: أمين الربحاني	بيروت	٤٠	السيد أوجينيو غريفييني	:
١١	: حسن بيهم	:	٤١	" رفيق العظم	:
١٢	: الألب لويس شيخو	:	٤٢	الشيخ محمد بن أبي شنب	الجزائر
١٣	: الشيخ عبد الله البستاني	:	٤٣	السيد رزق بامه	:
١٤	: السيد جبر ضرعوط	:	٤٤	: ميشو بلاير	طنجة
١٥	: عبد الباسط فتح الله	:	٤٥	: زكي مفاز	الاستانة
١٦	: الشيخ عبد الرحمن سلام	:	٤٦	الحكيم محمد أجمل خان	الهند
١٧	: السيد جرجي بني	طرابلس الشام	٤٧	: السيد فران	باريز
١٨	: الدكتور صالح قنباز	حماه	٤٨	: كليمان هوار	:
١٩	: الألب جرجس شلحت	حلب	٤٩	: جويدي	ايطاليا
٢٠	: السيد جرجس منش	:	٥٠	: نلينو	:
٢١	: " قضاكي حمصي	:	٥١	: هومل	المانيا
٢٢	: الشيخ كامل الفزي	:	٥٢	: ساخاو	:
٢٣	: السيد ميخائيل الصقال	:	٥٣	: هوروفيتز	:
٢٤	: الشيخ خليل الخالدي	القدس	٥٤	: مارتين هارتمان	:
٢٥	: السيد نخلة زريق	:	٥٥	: مومته	سويسرا
٢٦	: الشيخ سعيد الكرعي	طولكرم	٥٦	: سنوك هوغرينه	هولاندة
٢٧	: جميل صدقي الزهاوي	بنداد	٥٧	: مرجليوت	انكلترا
٢٨	: محمود شكري الآكومي	:	٥٨	: بقرن	:
٢٩	: احمد الاسكندري	مصر	٥٩	: براون	:
٣٠	: احمد زكي باشا	:	٦٠	: بول	الدانمارك
٣١	: احمد شوقي بك	:	٦١	: بدرسن	:
٣٢	: السيد أسعد خليل داغر	:	٦٢	: اغناطيوس غولد صهر	بودابست
٣٣	: حافظ ابراهيم بك	:	٦٣	: الشيخ ابو عبد الله الزنجاني	زنجان
٣٤	: الشيخ محمد رشيد رضا	:			

هل تمدنا؟ (١)

« ادعى بعض الهازلين ان مقياس تمدن أمة ما تنفقه من صابون وطوابع يريد ، وهذا التعريف الغريب غير كاف للابانة عن معنى التمدن ، فعلى الممدّن ان يعرف بعض اسرار القوى المحيطة به ، ويقدّر ما تكثّر معلوماته من هذا القبيل يكون حفظه من المدنية أوفر . والهمجي هو الذي لا يفهم شيئاً من أمور العالم ، أما نحن فقد فهمنا أكثر منه قليلاً قليلاً . ومنها ان معرفتنا بأن الجدري مرض جرثومي ينتشر ولكن لا بفعل ملك جبار بعد من المدنية . وعلمنا بأن خوف القمر يحصل من اعتراض الارض بينه وبين الشمس ولا يخسف من فعل تنين يأكله ، بعد خروجاً من الوحشية بعض الشيء . واثقول بأن الهواء ثقيل ويتألف من غازين مختلفين ينم عن بلوغنا درجة من الرقي العقلي .

« والواقع ان معرفة الأشياء أحياناً تستلزم امكان الانتفاع بها وتطبيقها على حاجتنا ، فمتى عرف ان الجدري ينشأ من جرثومة وانا في امكاننا وقاية اجسامنا اذا اتقينا تلك الجرثومة بجرثومة اخرى ، فهذا يقال له تمدن لأنه جزء من معرفة الأشياء . وفي وسعنا بالاعتماد على هذه المعرفة نفسها ان نكون بآمن من الجدري وان نبدد بعض اعراض البؤس الشديد .

« وهناك فرض آخر بسيط للغاية ذلك انا اذا ادعينا اننا نعلم الآن جميع الامرار التي يعرفها البشر بعد قرن فنحن أكثر تمدناً مما نحن اليوم ، ولنا أن تقول ان رجال هذا العهد أكثر تمدناً مما كان معاصرو ليوناردي فنشي ، ومن عاصروا هذا الرجل أكثر تمدناً من جنود اثامنون . ولا يفهم من معنى التمدن فرط السعادة ابداً ، فقد يحدث ان يسي الناس كثيراً استعمال المنافع التي أتاها بها العمل العلمي المستديم فلا يحصل الانتفاع بالعلم . فاذا كانت الطيارات تستخدم خاصة في ضرب (١) حديث القاه السيد محمد كرد علي في راديو فلسطين بالتدريس يوم الخميس في ٢٠ رمضان سنة ١٣٦٠ و ٢١ ايلول سنة ١٩٤١

المدن فالطيران اكتشاف مضر ، واذا كان من ارتقاء الكيمياء احداث غازات سامة تهلك مربية من الجند في بضع دقائق فالكيمياء علم ملعون . فالتمدن اذا بالمعنى الصحيح الذي يدل عليه ، هو مقدار عظيم من السعادة تحف حياتنا البشرية ، ولا تقوم الا بمعرفة الأشياء وباستعمالها المفيد . واخاجة تستلزم فوق هذا ان يضم اليها ماله علاقة بالأخلاق كاللئام والاخاء الانساني وحرمة الحق . وحق ثابت ما اقترحنه من ان سعادة البشر لتوقف على ارتقاء المعارف خاصة .

« لا يقوم تمدن ولا رفاهية بدون معرفة طبائع الأشياء ، ولا تكون الحياة بغير هذا الا وحشية وفي أقسى وحشيتها ، فالواجب صرف العناية الى الخير لا الى الشر . وبعبارة أخرى ان العلم شرط ضروري للسعادة البشرية ويتوقف على أمور أخرى . ان فهم قليل من الأمور في العالم ضروري لسعادة الناس العظمى او لشقايتهم ، وكل ارتقاء في العلم هو ارتقاء في المدنية وبعاون على سعادة البشر . »

هذا ما قاله العلامة شارل ريشه^(١) في كتابه العالم . وعرف الافرنج المدنية أيضاً بأنها وحدة مركبة من الأفكار السائدة والعادات الراسخة التي يعيش في سلطانها كل انسان عاش مجتمعاً مع غيره ، وفي كل مكان جمع أناساً كانت بينهم علائق مبتكرة او متزلزلة ، وكان من هذه العلائق صفات وكفايات وبعض قوة او بعض ضعف ، ومن كانت حاله كذلك فصفه بأنه متمدن . والفرق بين الشعوب الممجبة والشعوب المدنية ما تمتعت به هذه من أوضاع سياسية وادارية وثروة عامة وثقافة أدبية وفنية وعلمية واستقلال نسبي وان يكون ثمت توسع في العمل وسير الى الامام في النظام الاقتصادي والعقلي والأدبي فالرجل المتمدن هو الذي يرمي ببصره الى المستقبل ، وهذا التعريف كاف لتمييزه عن المتوحش الذي يعيش كل يوم بيومه ، ويستهلك في الحال كل ما يستحصل ، ويسرف في قوته تلذذاً بالامراف واللعب فقط ، وهو ابدأ بنظر الى الماضي وبلهو بالحاضر ولا ينظر الى المستقبل . واختلفوا في

(١) Charles Richet: Le Savant (Dans les caractères de ce temps.)

كتاب العالم لشارل ريشه (من مجموعة أخلاق هذا العصر)

الأسباب التي تنبعث منها المدنية فقال بعضهم ان المدنية تنبعث من العنصرية وقال بعضهم انها من ثمرة الدين وقال كارل ماركس ان المدنية بمجموعها (التشريع والاسرة والفن والعلم والأخلاق الخ) هي محصول الأسباب الاقتصادية ومرآة العوامل المادية . وسأل بوكال المؤرخ الانكليزي هل كانت الثقافة العقلية او الثقافة الاخلاقية هي التي تساعد على انبعث المدنية ورجح العامل الأول أي الثقافة العقلية (١) .

وبعد فقد توفرت بعض الأقطار العربية وفي مقدمتها مصر منذ القرن الماضي على السير في طرائق التمدن فبلغت بعد ثلاثة أجيال درجة عالية من التمدن ، وظل الجيهور الأعظم من بنيتها على وحشيتها ، فاتفرجت مسافة التمدن بين ابن الريف وابن المدينة . وكذلك يقال في الشام فان المدنية دخلت مدنها وظلت البوادي ومعظم القرى على ما كانت عليه . وانك لترى في مصر والشام لعبدنا تمدناً لا يقل عن تمدن الشعوب الاوربية والى جانبه انحطاطاً عجيباً لا نسبة بينه وبين الترقى الذي بلغه سكان الحواضر .

لا جرم ان مظاهر الحضارة في كل بلد من بلدان الشرق والغرب متفاوتة ، فابن المدينة غير ابن القرية ابدأ ، والتفاوت في مصر والشام عظيم جداً بين الحواضر والأرياف . وكلامنا نحصره في ذبلك القطرين لانها اول الأقطار العربية التي نهضت في العهد الأخير في هذا الشرق القريب . تبين شديد بين القروي والبلدي واكثر منه بين البدوي والحضري ، ولا يقل عنه الفرق بين المتعلم والجاهل .

قضى العلم الحديث على كثير من الخرافات كان الناس في العصر السالف يعدونها حقائق ثابتة لا تقبل الرد والنقض . كان الناس يعتقدون ان القمر ينخسف بفعل حوت يهيم بأكله وانهم اذا ضربوا له بما يفزعهم يفلت من أنياب الحوت ، وان الارض واقفة على قرن ثور وانها ثابتة لا تدور . وان الطواغين

(١) Nouveau Larousse Illustré (Art. Civilisation)

قاموس لاروس المصور (مادة : تمدن)

Towner: La philosophie de la civilisation (Traduit de l'Anglais).

فلسفة التمدن لتوفر (مترجم عن الانكليزية)

والاوبئة من فعل الجن ، ولا يعتقدون بالعدوى ولا يعترفون بوجود الجراثيم ، مع ان في السيرة النبوية احاديث تحذر من مدانة المريض ، وتقول بالنسبات المهلكة اي بالجراثيم ، وكانوا بتطيرون بالأيام والأنامي والحيوان والطير ، ويتمنون بمن يقع من أنفسهم موقعاً حسناً او توهمهم الخيلة انهم مصدر للخير ، ويتطيبون بالأدعية والتعاويذ ، ويحبون بالطلاسم والرقى ، ويؤمنون بالمغيبات والكرامات ، ويأمنون بالخرافات والخزعات . وقد بطل كل أولئك في البيئات المتعلمة ، ولم تخل بعض البيوت من بقايا محسوسة من هذه المعتقدات لأن عدد المتعلمين والمنعلمات من الأبناء والبنات أقل من الأميين والأميات .

كانت الناس حاشا العلماء يحسنون ظنهم بالطرق والمشايخ فبطل هذا الاعتقاد في كثير من المدن والقرى . واذا ذكرت الآن أمام أناس وكانوا ممن أسعدهم الحظ بأن تعلموا التعليم الابتدائي او ممن عاشوا في بيئة راقية وسمعوا كلام المنقذين ضحكوا ممن يعتقد بها . وعلى هذا غدا الناس يستعملون عقولهم وكانوا مدة قرون يسلمون بكل ما سمعوا من كبير او ممن يعتقدون انه افهم منهم . وكان يهون على السذج ان يقضوا أياماً طويلة كل سنة لحضور الموالد وزيارة المشاهد وكان الناس في مصر وايران بل في فلسطين أيضاً يعطلون أشغالهم كل سنة للاشتراك بمولد بعض الأولياء وندبة أحد الشهداء ، فأبطلت الحكومات ذلك فعد ابطالها من علائم التمدن ، وكمن اعتقاد كان راسخاً في الصدور بقوة الجهل ، وتسلسله من الأجداد الى الأحفاد ، فعاق المرء عن التعلم والأخذ بالأسباب ، فترع من الصدور ووقف المعتدلون من المتعلمين عند حد ما رسمته الشريعة من المعتقدات ونبذوا مازاد عليها وهذا أيضاً من التمدن .

كان جمهور الأمة يؤمن ايماناً غريباً بالسحر والتنجيم واستخراج البخت والفأل وتأثير العين ونفع الطلسمات والرقى فغدا اليوم ينكر صفات فتيان المدارس هذه الأمور ولا يسمع آباءهم وأمهاتهم الا أن يقلدوهم في معتقدهم وهذا اعتراف ضمني من الأميين او ممن كان في طبقتهم بأن التعلم أكثر معرفة ثم أكثر تمدناً ممن لم

يتعلم ولم يتشقف . كانوا الى عهد قريب يؤخذون بكلام كل من يقص عليهم غريبة فيعتقدون صحتها وبمعظمون أمر من رواها ويعدون عمله من القربات فاضمحل كل ذلك ، وهذا أيضاً من المدنية حل العقل محل الجهل .

واذا جئنا نوازن بين حالنا اليوم وحالتنا في أواخر القرن الماضي من حيث الاجتماع والتنظيم والبعدها ما أمكن عن التخريف والاعتقاد بالمجهولات نشهد مغتربين انا خطونا خطوات واسعة في خمسين سنة ماخطتها اكبر الأمم الحديثة تمدنا في مثل هذه الحقبة . وانا لآرى اليوم ابن الثامنة عشرة الذي درس الدروس الثانوية ارقى بعقله ومعرفته من معظم من يروي التاريخ أخبارهم ويشير الى انهم من العلماء والفضلاء . وعلى هذا ترى أهل الطبقة الوسطى الآن يعيشون عيشة تقرب من عيش أعظم الخلفاء في القرون الاولى للإسلام بما اقتبسوه من مقومات المدنية ونعموا به من خيرات الحضارة الحديثة .

كان المسلمون يمزجون كل شيء من أمور الدنيا بأمر الدين فقصروا اليوم الدين على أعمال الروح وانتفوا الى دنياهم فأخذوا عن الغرب طرائقه في معانة الأمور المالية والاقتصادية ، ينشئون المصارف والبيوت المالية والتجارية على أساليب غربية صرفه لاشأن للدين فيها ، واقتبسوا قوانين الغرب وانظمتهم وأوضاعه وما وجدوا حرجاً في ذلك كما اقتبسوا معظم مصطلحاتهم المدنية في البيوت والمجالس والموائد والمواضع والملاهي والملابس والآلات وغيرها . وكلما عمت هذه الأفكار والأوضاع البوادي كما عمت المدن ، وتناولها الأميون كما تناولها المتعلمون ، زادت سعادة البيوت وسعادة المجتمعات واطلق علينا اسم ممدنين .

من علامات المدنية ما نشهده في مراعاة الجمهور للنساء في الطرق والسكك الحديدية والترام والمقاهي والمطاعم والفنادق ، وكن منذ جيل موضع سخريه وامتهان ، وهذا ولا شك من آثار استمتاع النساء بحقوقهن في هذا العصر وتبدل عظيم في نظر القوم اليهن ، ومن علامات المدنية انهن يتمتعن اليوم بالطلاق كما كان ذلك خاصاً بأزواجهن ، أعطين هذا الحق وما خرج المشرع عن قانون الشرع الذي اغفل

اجيالاً بقوة الجيل واستبداد الرجال بالنساء . ومعنى هذا ان ما ننتع به المرأة اليوم من الحرمة والكرامة اكثر مما كانت عليه في القرون الوسطى . ذكر ابن الفرات في تاريخه في حوادث سنة ٧٩٣ انه صدر مرسوم الامير الكبير في القاهرة بأن لا تخرج امرأة من بيتها الى التربة وان كل من وجد منهن في تربة من التراب وسطت هي والمكاري والخمار ، وألاً بتفرج أحد في مركب في البحر وان من وجد في مركب احرق هو والمركب والنوتي فتحمى الناس ذلك في أيام العبد ولم يجسر أحد ان يتفرج ولم تجسر امرأة تطلع الى القرافة ولا الى التراب .

وذكر هذا المؤرخ في حوادث تلك السنة ان الامير الكبير كمشبغاً نائب الغيبة في القاهرة أرسل جماعة من الاوجاقية السلطانية ومعهم جماعة من عماليكه فداروا الأسواق والقياس والطرفات بالقاهرة وظواهرها فقطعوا اكمام النساء الواسعة بسكاكين كانت معهم وحصل لبعض النساء رجفة عظيمة لأنهم كانوا يأتون المرأة على حين غفلة ويمسكونها حتى يقطعوا كمها ، وبعض النساء وضعن حملهن من الرجفة وبعضهن سقطت مغشياً عليه وامتنع النساء من لبس القمصان بالاكام الواسعة وتفصيلها . قال المؤرخ ولو تم ذلك لكان خيراً عظيماً لكن النساء أعدن ذلك بعد حضور السلطان من الشام ! اهـ . جرى هذا في القاهرة أعظم مدن الاسلام مدينة في القرن الثامن كما شهد بذلك ابن خلدون المؤرخ العظيم .

ولك ان تعد في المدينين كل من لا يؤذي جاره ولا موأكله ولا رفيقه ولا المارة . هما كانت درجاتهم في المجتمع ولا يبعث بقانون المجتمعات ، وكل من يعرف أين تنتهي حريته الشخصية وتبدأ حرية غيره . فمن يلزم التؤدة والوقار في الجوامع والبيع ودور التمثيل والموسيقى والاندية والمتزهات ويظهر بمظهر المعتدل في شعوره وحر كاته وسمته ، ونظافة ثيابه وأطرافه ، ويتخرج من ابذاء مثافنه بصنانه وبخره يعد من المدينين ، وكذلك كل من لا يحدوه حب الفضول الى البحث في خصوصيات جاره ومواطنه ومساكنه الا اذا كان من وراء ذلك فائدة للمجتمع .

وكل من راعى القوانين العامة في بلاده يحسب رجلاً ممدناً ، وكل من تنظف وتجميل وتزين ، رجلاً كان او امرأة على شرط عدم الافراط في ذلك بعد ممدناً ، ومن يهون عليه خرق النظام ، فيؤ في أقصى دركات التوحش . واذا وقف المرء عند حدود الآداب العامة وصان لسانه عن استعمال الفاظ الفحش والبذاء واقتصر في كلامه العام على ما اذا أوردته أمام العذارى لا يخرج من عمله عمل المتدنين ، وكما أدرك المرء الا سعادة له ولذويه الا اذا اهتم للصالح العامة اهتمامه بمصلحه الخاصة وان سعادة غيره سعادة له ، وان شقاء وطنه يزيد ان لم يشارك مشاركة فعلية في انهضه وانه اذا لم يأت هذا مختاراً عدلاً لسا في أرضه يستمتع بخيراتهما وبلقي على غارب غيره متاعبها .

مثال من تمدنا وتوحش أهل القرون الغابرة . ما اظن انساناً نظر قليلاً في كتب الأدب الا ورأى بعض شعرائنا يصدعون الآذان بما قالوه في وصف الخلخال ، وما تغزلوا به واكبروا من جماله ، وما أبدوا من عجبهم من حركته وسكونه . ومن لم يتصور ذاك القيد الثقيل في رجل المرأة لا يدرك مقدار العبودية التي فرضها الرجال على النساء في غابر الأزمان ، ولا يعرف مدى الوحشية وقلة الذوق من عد مثل هذه الحديدة اللامعة من المغريات . ما الخلخال في الواقع الا صورة صادقة من عصور الحمجية الأولى ، ومن تأمله حتى التأمل يدرك مضرته التي أعجب بها الشعراء ، ويحكم على الذوق المنقهر عندهم . الى اليوم ترون صورة من الخلخال في أرجل بعض الفلاحات في ريف مصر وريف الشام كما نجد الفتيات الصينيات يحصرن أرجلهن في أحذية ضيقة من الحديد حتى اذا شببن بقيت أرجلهن صغيرة دليل الجمال .

كما فكرت في هذا الخلخال أجد فيه البشاعة كنها والحمجية كلها ، وكما رأيت كيف اضمحل وجوده عند ساكنات المدن اليوم لا يخامرني شك في أننا قطعنا مراحل طويلة في سبيل المدنية . وكذلك كما رأيت ذاك الخزام الذين يخزمون به انف الفتاة وقد بطل أيضاً استعماله في المدن ، ولم يبطل عند البدويات والقرويات في القطر المصري خاصة . ولم يبطل الى اليوم ثقب اذني الفتاة ليعلق فيها القرطان ،

ولم يبطل الوشم في أكثر الأرجاء العربية يسودون بالزرقة الساعدين واليدين والرجلين والوجه وأما كن أخرى من الجسم الانساني فتظل مشوهة طول حياتها ونفقدها كثيراً من جمالها ويشاركها في هذا التشويه الرجال .

كما تأملت هذه التشوهات يحمل بها في الاكثر القوي على الضعيف ، وقد أصبحت على توالي الاحقاب من الأمور المتعارفة التي لا تنكر ، احمد الله على انه خلقنا في هذا العصر وخلق لنا عقولاً نميز بها بين الجميل والقبيح والنافع والضار . ومن المحزنة جراءة النساء في مصر والحجاز على قطع جزء من جسم الفتاة لأمر يتوهمها منها اذا شئت وكبرت ، يغيرون بذلك صنع الخالق مع مخلوقه لا تملك أمر نفسها .

ومن المدنية ان تنبو عيوب ابناء هذا الزمان عن هذه التشوهات والمهجمات . وكيف لا نعد ذلك من المدنية ونسجل اللعنات على من آذوا المرأة في كل حالها وما عدوا شائن أعمالهم بدعة . وكان الزوج يضرب زوجته ويشتمها ويضرب أولاده وبعس في وجوههم بسبب وبلا سبب ويعامل المرأة خاصة معاملة قاسية لا ينظر اليها الا انها مملوكة .

هذا واذا عدلنا مع أنفسنا وقسنا تمدننا في مجموع صورته على القاعدة التي سنها الغرب للمدنيين وجعلوها المعيار في التمدن نجد أننا أحسننا الى الآن بعض فروعنا وأغفلنا بعضاً وتلقفنا بعضاً . ردوا عوامل التمدن الى ثمانية أبواب ^(١) كما ردها العلامة وايل دوران المؤرخ الاميركي . الاول منها العمل من زراعة وصناعات وتجارة والثاني تأسيس حكومة منظمة تضمن حياة الامرة والجماعة وسن القوانين وحماية الحياة والثالث الأخلاق والنضال والرابع الدين من حيث هو عامل في المدنية يستخدم الاعتقاد بما وراء الطبيعة لتسكين الألم وتربية الخلق وحفظ النظام ومداواة الاوهام الاجتماعية والخامس العلم ويراد به النظر الصحيح الى الاشياء وصحة الملاحظة والعمل على جمع المعلومات التي يتكون منها على طول الزمن معارف ينتج منها بعض معرفة

(١) تاريخ التمدن لوال دوران (منقول عن الانكليزية)

Will Durant: Histoire de la civilisation (Traduit de l'Anglais.)

تؤثر في مصير المرء وتنفع في مدته سلطانه على العالم والسادس عامل الفلسفة التي هي من وضع الانسان للوقوف على بعض أمور من هذا النظر الاجمالي من العالم والوصول الى حقائق الأشياء ومعرفة الحق والجمال والفضيلة والعدل المنبعثة من كبار الرجال والحكومات الصالحة والسابع الآداب وبها تنشر اللغة وتربى الناشئة ويرتقي الشعر والتثيل وينفذ نراث الأجداد من العفاء والثامن الفن والمراد به تزيين الحياة بالألوان والألحان والأشغال .

سيداتي سادتي « هذا ما يتسع له المقام لوصف المدنية ودرجتنا منها وعسى ان يجزل حظنا منها في الجيل القادم فان الأعوام التي قضيناها في تلقف المدنية قليلة بالنسبة للأعوام التي مرت على الغريبين .



ابو العلاء المعري والحشر

حسد العلماء ابا العلاء على فضله

{ خطأ العلامة الزمخشري في قوله على ابي العلاء
خطأ العلامة الباني فيها نسبة الى ابي العلاء
خطأ الدكتور طه حسين فيما ذهب اليه في ابي العلاء }

جرت سنة الله في خلقه ان لا يرمى من الشجر بالحجر الا اُطييه ثمراً . وان
لا يعذب بالسجن من الطير الا اجملها لوناً او أطربها صوتاً

وفي السماء نجوم لا عداد لها وليس يكسف الا الشمس والقمر
وعلى هذه السنة جرى الناس ولا سيما العلماء منهم . فقلنا رأينا رجلاً نبغ
في علم او ضرب في العبقرية بسهم الا وقد قبيض الله له طائفة من أمثاله يحرفون
كله عن مواضعها ويصرفون اقواله عما يريد منها الى ما يريدون ويؤولون كلامه
بما يشوه وجه الحقيقة فيها ، كل ذلك ليشيروا عليه الدماء ويجعلوه عرضة للواخذة
والانتقام ويغضوا من كرامته

ولدينا من رجال التاريخ الوف من العلماء الأفاضل رموا بالاحاد واتهموا بالزندقة
ونسبوا الى المروق من الدين وهم أصح عقيدة ممن رماهم واكثر اعتصاماً بالدين ممن
نقاه عنهم . وحسبك دليلاً على هذا ما تراه في اقوال العلماء والمؤرخين في أبي نصر
الفارابي وابن سينا والغزالي وابي حيان التوحيدي وابن رشد وابن عربي وأمثالهم
من رفعوا منار العلم وشيدوا صروح الحكمة

واذا بحثت عن هؤلاء الطاعنين في أولئك العباقرة وتقتبت عن الأسباب التي
حملتهم على النيل منهم اتضح لك ان الفئة الطاعنة بين معاصر يحسد معاصره
على ما آتاه الله من فضله فهو لا يألو جهداً في الكيد له والافتراء عليه ولا يدخر
وسعاً في اطفاء نوره . ليظهر بذلك فضله ويقوم مقامه

وبين متأخر يجب الظهور على رفات المتقدمين فيدفعه الحسد الى ان ينسقط

هفواتهم وبعظم الصغير من عثراتهم ، ويتصرف في حمل اقوالهم على الوجه الذي يعينه على الطعن فيهم ، وهناك فريق من المتأخرين إمعة يتابع كل قائل فيما يقول ويشايع كل راء فيما يرى وهذا من شر الناس على العلماء وأشدّهم وطأة على التوابغ وربما كان أبو العلاء من أكثر الفضلاء حساداً وربما كان حساده من أشد الناس ثقولا عليه وتحريفاً لأقواله

ولعل القارئ بعد هذا القول ضرباً من الاسراف والغلو فأنا أورد بعض الأدلة على صدق ما أقول حتى لا يظن ظان اني اتعصب لأبي العلاء او اتوسع في الاعتذار عنه او أتزيد للذود عنه . الدليل الأول

ذكر ابن العديم في الانصاف والتحري . ونقله عنه ياقوت في معجم الأدباء ج ١ ص ١٧٩ ان ابا العلاء كان يرمى من اهل الحسد له بالتعطيل ، وتعمل تلامذته وغيرهم على لسانه الأشعار يضمنونها أقاويل الملحدة قصداً لهلاكه وإثارة لاتلاف نفسه فقال ٠٠٠ ثم أورد ابياتاً لأبي العلاء في ذلك .

وذكر ابن العديم ان رجلين كانا يؤلبان عليه وينسبانه الى الكفر والاحاد وقد حرفا بيتاً من لزوم ما لا يلزم عن موضعه ليثبتا عليه الكفر بذلك فكتب رسالة الضبعين الى معز الدولة ثمال بن صالح يشكو اليه ذلك .

وطعن عليه جماعة في أبيات من لزوم ما لا يلزم ونسبوه الى الكفر فوضع كتاب زجر الناج ليرد عليهم ويبين وجوه الايات ومعانيها ثم طعن عليه آخرون في أبيات آخر فوضع كتاب فجر الزجر أو بحر الزجر فيبين التحريف ووجوه الأبيات .

وحسبك من هذا النوع ما قاله جماعة من العلماء في كتابه الفصول والغايات فقد زعموا انه عارض به القرائن ونسبوه الى الكفر والزندقة والاحاد بسببه وليس في الكتاب شيء مما زعموا وقد طبع الجزء الأول منه وهو على طرف الثام ممن اراد الامام به

الدليل الثاني

كان أبو العلاء في بغداد فتوفي الشريف والد الرضى والمرضى فرثاه أبو العلاء بقصيدة قال فيها

الموقدي نار القرى الآصال والآس حار بالاهضام والاشعاف
حمراء ساطعة الذوائب في الدجى ترمي بكل شرارة كطراف
والبيت الثاني من اجمل ما قيل في وصف النار وسطوعها في الدجى وتشبيه
الشرارة بالطراف على غاية من الروعة والابداع ثم مضى في وصف النار وصفاً بقصر
عن مثله البصراء ، ومراده من ذلك كله وصفها بالكرم والاطعام وهذا سبيل البلغاء
في ذلك العصر والذي قبله

نجاء العلامة الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ وقال في تفسيره الكشاف [عند قوله
تعالى انها ترمي بشرر كالقصر] قال ابو العلاء . حمراء ساطعة .

ثم قال فتشبهها بالطراف وهو بيت الأدم في العظم والحمرة وكأنه قصد بجنسه
ان يزيد على تشبيه القرآن ولتبجحه بما سول له من توهم الزيادة جاء في صدر
بيته بقوله حمراء توطئة لها ومناداة عليها وتنبيهاً للسامعين على مكانها . ولقد عمي
جمع الله له عمى الدارين عن قوله عز وعلا كأنه جمالات صفر فانه بمنزلة قوله
كبيت أحمر على ان في التشبيه بالقصر وهو الحصن تشبيهاً من جهتين من جهة
العظم ومن جهة الطول في الهواء وفي التشبيه بالجمالات وهي القلوس تشبيه من ثلاث
جہات من جهة العظم والطول والصفرة فأبعد الله اغرابه في طرافه وما نفخ شذقيه
من استطرافه .

هذا كلام الزمخشري . واذا تأملت آيات المعري لا تجد فيها تعرضاً لذكر
القرآن ولا معارضة لتشبيهاته ولا شيئاً يتصل بالقرآن او تشتم منه رائحة المعارضة .
واذا تأملت قول الزمخشري لا تجد مناسبة لذكر بيت المعري على هذا الوجه
ولا سبباً داعياً اليه ولا تجده في طعنه بالمعري موثقاً . ولذلك انكرت عليه جماعة
من الفضلاء قوله هذا . منهم صدر الأفاضل الخوارزمي فانه نقل قول الزمخشري
ثم قال : ولا ادري من أين له انه قصد الزيادة على تشبيه القرآن فمن المعلوم ان
القصر أعظم من الطراف ولكن الزمخشري مع فضله كان حديد المزاج كثيراً

(٢م)

ومنه العلامة نثر الدين الرازي فانه ذكر في تفسيره مفاتيح الغيب ج ٨ ص ٣٠٧ بيت المعري ثم قال زعم صاحب الكشف انه ذكر ذلك معارضة هذه الآية . وأقول كث الأولى لصاحب الكشف ان لا يذكر ذلك . ثم ذكر اثني عشر وجهاً يفضل بها تشبيه القرآن على تشبيه المعري بأسلوب ينم على فضل وعلم وابتعاد عن الحسد واللؤم

وأنا أقول ان أبا العلاء لما نظم هذا البيت لم تخطر في باله هذه الآية الكريمة ولادارت في خلد معارضتها او الزيادة عليها ولو كان شيء من هذا لتأثر بلفظها او معناها ومن البعيد ان يحاول ابو العلاء معارضة القرآن وهو القائل في رسالة النفران ص ١٥٨ ان هذا الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كتاب بهر بالاعجاز ولقي عدوه بالارجاز ما حذي على مثال ولا أشبه غريب الامثال . . . ما هو من القصيد ولا الرجز . . . ولا شا كل خطابة العرب ولا سجع الكهنة . . . وان الآية منه او بعض الآية لتعترض في أفصح كلم بقدر عليه المخلوقون فتكون كالشهاب المتلألئ في جنح غسق والزهرة البادية في جدوب ذات نسق .

وبهذا التقدير يتضح ان الزمخشري على جلالة فضله يقول على ابي العلاء وتأول كلامه على وجه لم يكن له به علم ولا رضى وتغاضى عما في البيت من جمال التأليف وروعة التشبيه وان كان دون كلام الخالق في ذلك كله

الدليل الثالث

استشهد جلال الدين القزويني المتوفى سنة ٧٣٩ في بحث تقديم المسند اليه من كتابه تلخيص المفتاح بقول ابي العلاء

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

فقال السعد التفتازاني في شرحه المختصر . يعني تحيرت الخلائق في المعاد الجسماني والنشور الذي ليس بنفساني بدليل ما قبله

بان أمر الاله واختلف الناس فداع الى ضلال وهاد

بمعني بعضهم يقول بالمعاد وبعضهم لا يقول به . هذا ما قاله السعد .

ثم جاء العلامة البستاني فقال في التجريد ج ص ١٨٨ لا يبعد ان يكون تقديم القول بالمعاد في تفسير البيت [مع ان الظاهر هو اللف والنشر المرتب] ايماء الى ان مراد الشاعر بالداعي الى الضلال هو القائل بالمعاد بناء على ما اشتهر في التواريخ من ان ابا العلاء ملحد منكر للحشر ويؤمى اليه بيته المشهور عند من له ذوق سليم وهو قوله

يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار
وتقل ذلك عن الغزي . فانظر كيف تأول هذان العالمان قول المعري تأولاً
فاسداً بناء على ما اشتهر عنه مع انه يصرح في القصيدة التي منها البيت الأول
بالحشر بقوله

انما ينقلون من دار اعمال الى دار شقوة او رشاد
والبيت الذي ادعيا ان فيه ايماء ليس فيه ايماء الى انكار الحشر بل صرح
بالنار في البيت الذي قبله وهو

تناقض ماننا الا السكوت له وان نعوذ بمولانا من النار
ولا شك أن المراد النار في الآخرة وهو تصریح بالحشر
الدليل الرابع ان ابا العلاء قال في لزوم مالا يلزم
ضحكنا وكان الضحك منامفاة وحق لسكان البسيطة ان يبكوا
يحطمننا صرف الزمان كأننا زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك
ونسب اليه جماعة هذه الأبيات

رب الزمان مفرق الإلفين فاحكم إلهي بين ذاك وبيني
انهيت عن قتل النفوس تعمداً وبعثت تأخذها مع الملكين
وزعمت أن لها معاداً ثانياً ما كن أغناها عن المالمين
ومنهم من روى البيتين الأخيرين فقط وفي بعض الروايات اختلاف وليس شيء
من هذه الأبيات الثلاثة في لزوم مالا يلزم ولا في شيء من كتب ابي العلاء التي
وصلت إلينا .

فاتخذ جماعة من العلماء من هذه الآيات حجة على كفره وانكاره الحشر وطبع على غرارهم صاحب ذكرى ابي العلاء وزاد عليهم بيتاً آخر استدل به على شك ابي العلاء في الحشر وهو

يا مرجحاً بالموت من متنظر ان كان ثم تعارف وتلاق
كما زاد عليهم اذ جعله مرة يثبت الحشر كما في ص ٢٩٤ من تجديد ذكرى
ابي العلاء وثانية ينكره نصاً وثالثة يقف موقف الشك ورابعة يجزم بمذهب افلاطون
وخامسة أنه تفاد أكثر من ستين مرة في اللزوم من غير ان يبين واحدة منها ثم
ختم كلامه بقوله الروح الفلسفي يثبت لنا ان ابا العلاء ان لم يكن قد أنكر
البعث انكاراً تاماً فقد شك فيه شكاً شديداً .

واذا نظر الانسان نظر العاقل المتصف في البيتين الأولين : ضحكنا و كان
الضحك . . . لا يرى لها علاقة بالحشر ولا فيها دلالة على اثباته وانكاره وانما
جرت عادة البلغاء ان يجعلوا الزجاج مثلاً أعلى في الضعف وسرعة التكسر . وفي
عدم الجبر ومن الأول ما جاء في الحديث الشريف رويدك رفقا بالقوارير أراد
النساء وشبههن بالقوارير من الزجاج لأنها يسرع اليها الكسر
ومن الثاني قول حسان بن ثابت

وامانة المري حيث لقيته مثل الزجاجه صدعها لا يجبر

وقد درج ابو العلاء على هذه الطريقة فشبّه الناس بالزجاج في سرعة التحطم
والعجز عن المقاومة والجلد في هذه الحياة الدنيا ومن كان هذا شأنه فيها فجدير به
أن لا يضحك في دنياه بل يبكي ثم ذكر ان بين الناس والزجاج فرقاً وهو ان
الزجاج يمكن ان يسبك في هذه الدنيا فيعود الى حالته الأولى والناس لا يمكن
ان يجبروا فيها اذا حطمهم الزمان بالموت . هذا ما يدل عليه هذا اللفظ

ومن البدهي ان الزجاج لا يسبك في الآخرة وان المعري لا يريد هذا المعنى
وليس في الكلام ما يدل على الآخرة او يتعلق بها وانما هو تحذير من الدنيا وبيان

لتسلط صروفها القاسية على الناس . فتعين ان يكون المراد ان ليس لنا سبك في الدنيا بعيدنا الى حالتنا الأولى فيها وبهذا يخالف الزجاج . وهذا قول حق لاربيب فيه . ونظيره قول ابي العلاء في لزوم ما لا يلزم

أرى الشهد يرجع مثل الصبر فما لابن آدم لا يعتبر
وخبره صادق في الحديث فان شك في ذلك فليخبر
وجبر وكسر له في الزمان ويكسر يوماً فلا ينجر

وهذا يوضح المراد من اليتين الأولين لأن قوله وجبر وكسر في الزمان يدل على انه يريد بقوله لا ينجر في الدنيا ومن قبيل قول ابي العلاء هذا قول علي ابن ابي طالب [ض] فبادروا العمل وخافوا بغتة الأجل فانه لا يرجي من رجعة العمر ما يرجي من رجعة الرزق . وقوله أيضاً . أولم تروا الى الماضين منكم لا يرجعون . . . فان المراد الرجعة في هذه الدنيا والا كان علي [ض] منكراً للحشر وقد استعمل ابو العلاء سبك الزجاج في مواطن كثيرة من شعره كقوله

تحفظ بدينك يا ناسكاً يرى انه رابح ما خسر
فلست كغيرك أطلقت في حياتك بل انت عان أمر
وللسبك رد كسير الزجاج ولا يسبك الدر ان ينكسر

وقوله

يسبك الصائع الزجاج ولا يد طبع سبكاً للدر ان يتشظى
وأعاد هذا المعنى بقوله

خف يا كريم على عرض تعرضه لعائب فلتيم لا يقاس بك
ان الزجاج لما حطمت سبكت وكم تكسر من در فما سبكا
وهو في جميع هذه الآيات واشباهها يشير الى ان النفيس اذا كسر لا ينجبر بخلاف غيره ومن البين انه لا يريد كسراً ولا جبراً في الآخرة وانما يريد في الدنيا .

وأما الآيات الثلاثة التي على روي النون فان اسلوبها يدل على انها مصنوعة

على لسان المعري وانها ليست من صنع شعره . ومن البعيد عن أدب المعري ان يقول فاحكم إلهي . . . ثم يقول . أنبيت عن . . . وزعمت . . . اذ لم نر في كلامه الذي يخاطب ربه به مثل هذا النمط . . . واذا سلمنا انها من كلامه فهي وان دلت على اساءة ادب في الخطاب لا تدل على انكار الحشر وانما تدل على اثباته لأن قوله ما كان اغناها عن الخالين صريح في اثبات الخالين لها واحدهما المعاد الثاني وهو الحشر

وأما البيت الأخير الذي استدل به صاحب الذكرى على الشك فانه من

قصيدة مطلعها

أما الحقيقة فهي اني ذاهب والله يعلم بالذي أنا لاق

ثم قال فيها

سينموت محمود ويهلك آلك وبدوم وجه الواحد الخلاق
يا مرجباً بالموت من منتظر ان كان ثم تعارف وتلاق
وليس في البيت تصريح بانكار الحشر او الشك فيه وانما الشك في التعارف والتلاقي وهما غير الحشر اذ قد يجوز ان يكون الحشر ولا يكون فيه تعارف وتلاق فلا يلزم من الشك فيهما الشك فيه فهو نظير قول النابغة
لا مرجباً بقدر ولا أدلاً به ان كان تفريق الأُحبة في غد

فانه يفيد الشك في التفريق لا في غيره . وبعد هذا فان بيت ابي العلاء مسوق للترحيب بالموت على تقدير ان يكون هناك تعارف وتلاق ومفهوم هذا انه اذا لم يكن شيء منهما فانه لا يرحب بالموت . وهذا لا يوجب شكاً في البعث ولا في غيره وقوله في مطلع القصيدة . والله يعلم بالذي انا لاق واضح في انه يريد ما يلقاه في الآخرة لأنها دار الجزاء فهو جازم باللقاء وان جهل عين ما سياتي
رائد فتشت فيما اتنى الي من كلام ابي العلاء في جميع اطوار حياته فلم أر فيه ما يدل على شك في البعث او انكار له وانما رأيت فيه ماث من المواطن التي

صرح فيها بالحشر والنشر والقيامة والحساب والجنة والنار ونحو ذلك مما يتصل بالآخرة

من ذلك قوله في سقط الزند ج ١ ص ١٤٠

فلو زار أهل الخلد عتبك زورة لأوهمهم ان الجنان جعيم
وقوله ص ١٩٤

فيا ليت شعري هل يخف وقاره اذا صار أحد في القيامة كآلهن
وهل يرد الحوض الروي مبادراً مع الناس ام يأبى الزحام فيستأني

. . .

وما استعذبه روح موسى وآدم وقد وعدا من بعده جنتي عدن
وقوله ص ٢٠٨

ولا تنسني في الحشر والحوض حوله عتائب شتى بين غر الى بهم
لعلك في يوم القيامة ذاكري فتسأل ربي أن يخفف من إثمي
وقوله ص ٢١٠

انما ينقلون من دار أعما ل الى دار شقوة اورشاد
وقوله في ج ٢ ص ١٢

جازاك ربك بالجنان فهذه دار وان حسنت تغر بستها
ضل الذي قال البلاد قديمة بالطبع كانت والأنام كنبتها
وامامنا يوم تقوم هجوده من بعد ابلاء العظام ورفتها
وقوله ص ٦٠

نبذت مفاتيح الجنان وانما رضوان بين يديه للاتحاف
وقوله ص ٥٤

فان استطع في الحشر آتاك زائراً وهيئات لي يوم القيامة أشغال
وقوله ص ٨٩

سألت متى اللقاء فقليل حتى يقوم الهامدون من الرجام

فلت أذنين يوم الحشر نادى فاجهشت الرمام الى الرمام
وقوله ص ١١١

فلا كان سيري عنكم سير ملحد يقول يباس من معاد ومرجع
وقوله ص ١٢٠

فان لقيت وليداً والنوى قذف يوم القيامة لم أعدمه تبكىنا
وقوله في الدرعيات ص ١٧٦

لعله ان يجي مدرعا يوم رجوع النفوس في الرم
وقوله ص ١٧٧

او عمل الكفر من يدين به في البعث ابان مجمع الأمم
وقوله ص ٢١٦

فلا تسكتر الهجات فيها فأعراس بتلك دخول جنة
وفي ملتي السبيل كثير من ذكر الآخرة والجزاء في النظم والنثر
كقوله

نت عن الأخرى فلم تنقبه وفي سوي الدين هجرت الكرى
وقوله : وفي الآخرة يكون الجمع . وقوله : والنهج للآخرة يسلك .
وقوله : ولاقتهم الآخرة بما نوا .

وكتاب الفصول والغايات طافح بما يدل على الآخرة وما فيها كقوله لله القلب
واله المنقلب : وقوله . تارك الصلاة من صلاة السعير . وقوله : كفيتني رب
شقاء الدنيا فاكفني شقاء الآخرة . وقوله : الشقي من حضر عرصات القيامة .
وقوله : واجد ثوباً للآخرة تكتسيه .

وفي رسالة الملائكة تصدى في مواطن كثيرة لذكر الملائكة والجنة ونحوها
كقوله ص ٧ ام تراني أدارى منكرآ ونكيراً . وقوله : ص ١٦ قصرت أعمالهم
عن دخول الجنة وقوله : ص ١٧ فيقول رضوان وقوله ص ٢٠ يشربون ماء
الحيوان في النعم المقيم

وقوله : ص ٢٣ وان كان اهل الجنة ...

وأما رسالة الغفران فكل ما فيها أدلة وبراهين على اقراره بالبعث والحشر والجنة والنار وما الى ذلك

ولم تخل رسائله الى اهل بيته وأصحابه وغيرهم من ذكر الآخرة وما يتصل بها فقد قال في رسالة المنيع ص ٩ : أفبئتنا جناناً أم نشروا بعد ما قبروا أم جزوا الغرفة بما صبروا ...

وقال في رسالته الى خاله ص ٦٧ وترجع في الحشر وزنا . وفي رسالة ثانية اليه ص ٦٩ وحزني لفقدك كنعم أهل الجنة وفي رسالته الى ابي عثمان النكفي ص ١٥٢ نقله الله ... من دار الشقاء الى دار النعيم والبقاء

وفي رسالة الى خاله ص ٢٠٩ فقد ورد مع الحور العين كأنسا كان مزاجها كافورا .. جاور ربه في دار الحيوان تلك الدار الآخرة ...

وفي جوابه الى داعي الدعاة بمصر ذكر الآخرة وتعوذ بالله من قول من أنكرها ولعن الوليد بن يزيد لقوله الذي أنكر فيه البعث والجنة ، كما ذكر ذلك ياقوت في معجم الأدباء ج ١ ص ٢٠٠ و ص ٢٠٨

وأما لزوم ما لا يلزم فهو أكثر كتبه مظنة أن يكون فيه إنكار أو شك لأنه أطلق لسانه فيه العنان وأعطى عقله فيه الحرية المطلقة وأوضح فيه عن كثير من آرائه الفلسفية وقد زعم صاحب الذكري ان ابا العلاء نفي البعث فيه أكثر من ستين مرة ولكنه لم يبين مرة منها ولم يعين موضعاً لواحدة منها فيه كما قلنا

وأنا أقول ان ابا العلاء اثبت فيه الحشر وما يتعلق به مما يكون بعد الموت الى دور الخلود في أكثر من مائة موضع واستدل على امكان بعض منه وهذه امثلة من كلامه في ذلك

القبر وما فيه

خلصيني من خنك ما انا فيه واطرحيني لمنكر ونكير

فهل هو خاش من نكير ومنكر وضغطة قبر لا يقوم لها نظم

الجزء

لا يأسن من الثواب مراقب لله في الايراد والاصدار
قترى بدائع أنبات متحسماً ان الجزء بغير هذي الدار
الصور

مفت قرون وتمضي بعدنا أمم والسرخاف الى ان بنفخ الصور
الصحائف

وجاءت صحائف قد ضمنت كبار آثامهم واللم
الحساب

وراعني للحساب ذكر وغرني انه بهيد
وعن يميني وعن شمالي يصحني حافظ قعيد

السراط

وكان هذا الخلق أهل جهنم ولهم من الموت الزؤام سراط

الميزان

أكذب القوم بالميزان أن سمعوا ان القيامة فيها عادل يزن
وقد وجدنا مقال الناس ذا زنة فكيف ينكر ان الفعل يتزن
رضوان

وان كنتني عذاب الله مغفرة فما احاول منها فوز رضوان
مالك

يارضو لا أرجو لقا لك بل اخاف لقاء مالك
طوبى

فان خرجت الى بؤسى فواحر جي وان تقلت الى نعمى فطوبى لي
جنة الخلد

وما اظن جنان الخلد بدر كها الا مامشر كانوا في التنى جهدا
جنة عدن

فان جنة عدن لا يجاد بها الا لصاحب دين في أذى عدنا

جنة النعيم

وما سرني اني اصبحت معاشراً بظلم وأني في النعيم مخلد
النار

أصبح في الدنيا كما هو عالم وأدخل ناراً مثل قيصر او كسرى
سقر

ان عوضوا عن ذنوب اسلفت سقراً فلم ترمهم على علامتها سقر
السعير

أترجين من إهلك عفواً وتخافين في الحساب السعيرا
جهنم

جنان ورضوان الذي هو مالك لها عنك ينبي مالكا وجهنا
الهاوية

هاوية نفسك ما ساءها فلتخش ان تلقى الى الهاوية

حسي من الجهل علي ان آخرتي هي المال واني لا أراعيها

وان دنيائي دار لا قرار بها وما أزال معنى في مساعيها

كيف لي ان اكون في داري الأخ رى معاني من شقوة مستريحا

وقدرة الله حق ليس بمعجزها حشر خلق ولا بعث لأموات

يكر موتانا الى الحشر ان قال لهم بارثهم كروا

بحكمة خالقي طي ونشري وليس بمعجز اخلاق حشري

فيا ليتني في الثرى لا اقوم ان الله ناداكم او حشر

لا خير للمرء الا خير آخرة يبقى عليه فذاك العز والشرف

ولولا خشية الإطالة لأتينا على ذكر عدد عظيم من الشواهد من كلامه في

هذا الموضوع مما ذكره في لزوم مالا يلزم وقد ذكرنا في كتابنا التعريف بأبي العلاء أكثر من مائة بيت صرح فيها كلها بذكر الحشر وما فيه وليست في جميع ما في لزوم مالا يلزم بل هناك عدد كبير لم نذكره وبعد هذا يمكننا ان نستنتج مما تقدم أربعة أمور

الأول : ان ابا العلاء مؤمن باخشر مقرر بكل ما يتعلق به علي وفق ما جاءت به الشريعة الاسلامية وان ليس في كلامه تصريح بالشك او الانكار في جميع اطوار حياته وجميع آثاره التي ذكرناها

الثاني : ان بعض العلماء حكم عليه بالاحاد او انكار الحشر او نحوهما اما عن حسد او ثقل او طلب شهرة او متابعة لما قيل من غير ثبوت ولا استناد الى دليل ومثل هؤلاء مثل الرجل الذي مر في سوق يحمل باحدى يديه خبزاً وبالأخرى لبناً فرأى انساناً يضربون رجلاً فوضع ما كان في يده وأقبل على المضروب فأشبعه ضرباً وسباً ثم عاد فحمل طعامه وادامه فقال له رجل : ما حملك على ما فعلت ؟ قال : اني لا اعلم الرجل المضروب ولكني رأيت هؤلاء يضربونه فقلت لولا انه يستحق الضرب لما ضربوه فشاركتهم في عملهم

الثالث : ان الزمخشري والبناني لم يوفقا فيما تقولا او تأولا على ابي العلاء
الرابع : ان مانسبه صاحب الذكرى الى المعري من الشك او الانكار قائم على الوهم المجرد وحسبنا ان نجتزئ بهذا القدر فان فيه مقنعاً للرتاب

سليم الخزري

— 2004 —

المرأة في عهد النبوة ، وفي عصرنا الحاضر

كان امر المرأة في تاريخ العالم القديم والحديث عجباً ، كانت تشرى وتباع ، وتكره على الزواج والبغاء ، وكانت تملك وتورث ، ويتصرف فيها الرجل على هواه كأنها سلعة ، أو كأنها كرة بين ايدي الرجال ، ولم تكن الأم الأخرى أقل اضطهاداً لها ، أو امتهاناً لها من عرب الجاهلية ، وليس هذا موضع تفصيل تاريخها عندهم وإنما الكلام فيما كانت عليه قبل الاسلام وفيما ارتقت اليه بعده .

كان العرب في العهد الجاهلي فريقين : منهم من عبد المرأة بعد ان جعلوا الملائكة إناثاً ، وجعلوها بناتٍ لله ، ومنهم من وأدها ، أو أبقاها فاضطهدها ، وما ورد في القرآن الكريم أصدق مثال للحال التي كانت عليها العرب قبل الاسلام ، فهو يقصُّ علينا كيف عبدوا الأنثى ، ومن آياته في ذلك قوله تعالى « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » وقوله « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً : أشهدوا خلقهم ، مستكتبٌ شهادتهم ويسألون » وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، ما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا بخرصون » فهم لم يعبدوا الملائكة حتى جعلوها بناتٍ ، وجعلوها إناثاً ، وقال في الفريق الآخر الظالم الآثم : « وإذا بُشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون ، أم يدسه في التراب ، ألا ساء ما يحكمون » وقال : « وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت »

فهذه الطفلة التي كانت تعيش ذليلةً مهينة ، أو تدس في التراب حيةً دفينه ، مستقول : يارب ، قتلت بلا ذنب .

هذان طرفان ذميان من معاملة الأنثى في الجاهلية ، فلما جاء الاسلام أبطلها معاً ، ومنحها حقوقها ، وعرفها واجباتها ، وأثرلها المنزل اللائقة بها ، وآية « ولئن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » لا يوجد في أرقى الشرائع القديمة

والحديث قانون أعدل ولا أجمع منها ، إذ قد ساءت بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات ولم تعين هذه الحقوق والواجبات لأنها تتبع العرف ، وتختلف باختلاف الطبقات ، والشرائع والعادات ، وخصت الرجل بدرجة الرئاسة إذ لا بد لكل جماعة أو أسرة من نظام ، ولا بد لكل نظام من رئيس منفذ ، والرجل اولى بتطبيق النظام المنزلي وتنفيذه ، لأن له من القدرة على الرعاية والحماية والكسب والإتفاق ما ليس لها ، وهذا المراد من الآية الكريمة « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما اتفقوا من أموالهم » لكن هذه الرئاسة رئاسة شورية لا استبدادية ، ودليلاً من القرآن قوله تعالى في شأن الزوجين وطفلها الرضيع وفطامه « فان أرادا فصلاً عن تراضٍ منها وتشاور فلا جناح عليهما » فهذا نص صريح في إقامة سنة الشورى بين أعضاء الأسرة الواحدة ، فالإسلام نهى عن عبادة المرأة ، ولم يستعبد لها كما فعلت الأمم السابقة ، ولم يقلب نظام الطبيعة ليجعل منها رجلاً ثانياً كما فعل العصر الحديث ، فقد تحلى عنها الأب والأخ والزوج والابن ، ودفعوها جميعاً في تيار العمل واللاهو خارج المنزل ، فاختل نظام البيوت ، ولا تزال نسمع الشكوى المرأة في الاذاعات العامة المرة بعد المرة ، من تقوض دعائم الأسرة والوطن .

أثر المرأة في الحروب الجاهلية والاسلامية

لم تفقد المرأة بعد الاسلام شيئاً من مكانتها الأدبية ولا شجاعته الحربية ، ولكن الاسلام وجهها وجهة صالحة ، ونفع فيها روحاً جديداً لم يكن لها من قبل .
كان القتال الجاهلي حروباً أهلية داخلية ، وكان فيها إضعاف للأمة ، وتفرق لوحيدتها ، وهدم لقواها ، ومنهم من كان يُصرح بأنه يشهد الوغى لا لغرض سوى شهود اللذات ، أو اليأس من الحياة ، كقول طرفة :

ألا أيهذا الزاجري احضر الوغى وان أشهد اللذات هل انت مخلدني
فان كنت لا تستطيع دفع منيبي فدعني أبادرها بما ملكك يدي
وعنزة الذي يتنزل بعبلة ويحاول ان يسترضيها بوقائمه ومشاهده فيقول :

ولقد ذكرتكَ والرماحُ نواصلُ مني ويضُ المند تقطر من دمي
فوددتُ تقبيل السيوف لأنها لممت كبارق ثغرك المتبسّم
وكانوا إذا ساروا للحرب صحبوا نساءهم ابتغاء الخفيضة واتقاء الفرار ، وأخذوا
معهم القيان والدفوف والمعازف والخمور ، ومنه ما وقع في غزوة أُحدٍ فإنه لما التحمت
الصفوف واشتدت الحرب قام النسوة وأخذن الدفوف يضربن خلف الرجال ويُشدّن
الأشعار تهيبجاً لمواطنفهم ، وكان عليه الصلاة والسلام كلما سمع نشيد النساء قال :
اللهم بك أجول ، وبك أصول ، وفيك أقاتل ، حسي الله ونعم الوكيل »

ويظهر لنا الفرق واضحاً بين هذه الأهداف القاصرة وبين الهدف السامي الذي
جاء به الاسلام وهو اعلاء كلمة الله : أي نصرته الحق على الباطل ، والفضيلة على الرذيلة ،
والتوحيد على الوثنية ، وابن ذكرُ عنزة لعبلة حين اشتداد القتال من ذكر الله في
قوله « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »
فاثباتُ من اسباب النصر والظفر ، وذكرُ الله قوة معنوية تثبت القلوب من
ناحية ، وتبعثُ فيها الرحمة من ناحية أخرى ، فالذاكر لله لا يقاتلُ ابتداءً ولا اعتداءً ،
ولا يقاتل من لا يقاتل كائنساء والصبيان والشيوخ والمرضى ومن ألقى السلم وكفَّ
عن الحرب .

كان تألق نور الاسلام له اثر في تطور الحياة العربية الفكرية والاجتماعية
والأدبية والسياسية ، وها نحن اولاء نقنصر الآن على ذكر المرأة العربية في العصر
النبوي بعد ان وصفنا عملها في الدور الجاهلي .

كان تعلم العلم الديني في عهد النبوة عامّاً للكبار والصغار والذكور والاناث ،
فكان النساء يتدارسن القرآن ، ويروين الأحاديث ، ويُحافظن على العبادات ،
ويصلين صفوفاً في المساجد ، ويستمعن الخطب والمواعظ ، ويحضرن صلاة العيدين في
المصلى العام ، ويسافرن لأداء فريضة الحج والعمرة ، بل كن أيضاً يشهدن الحروب ،
ويميشن للمجاهدين الطعام ، ويسقينهم الماء ، ويغسلن الثياب ، ويضمدن الجروح ،
ويشتركن في الجهاد أحياناً .

نعم إن الشريعة لم توجب على المرأة حضور الجماعة والجمعة إيجاباً ، ولم تفرض عليها القتال مع الرجال ، وحماية الديار ، والدفاع عن الحق بالقوة ، وإنما خصت الرجال بذلك كله لأن للمرأة من نظامها انطوري ، واختصاصها المنزلي ، ما يعوقها عن مشاركة الرجال في كل حين يمثل هذه الأعمال ، ومن اكبر موانعها الحمل والولادة وحضانة الأطفال وإعدادهم رجالاً للمستقبل ، وإدارة شؤون المنزل .

وأما عملها الحربي الاسلامي ، فيظهر الفرق بينه وبين عمل النساء الحربي الجاهلي ، بما قامت به في وقعة أحد نفسها بطلة الحروب والوفائع العربية الاسلامية ، الصحابية الجليلة أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية الانصارية الشهيرة ، والبيك الحوز الذي دار بينها وبين أم سعد بنت سعد بن الربيع ، قالت أم سعد : دخلت عليّ أم عمارة فقلت يا خالة : اخبريني خبرك ، قالت : خرجت اول النهار ، وانا انظر ما يصنع الناس ، ومعي سقاء فيه ماء ، فانهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في اصحابه ، والدولة والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انخرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت أبأشر القتال ، وأذب عنه بالسيف ، وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراح اليّ ، فرأيت علي عاتقها جرحاً اجوف له غور ، فقلت من اصابك بهذا ، قالت ابن قثمه أمّاه الله (اذله واصغره) : لما ولى الناس عن رسول الله اقبل يقول : دلوني على محمد فلا نجوت ، ان نجا ، فاعتزضت له انا ومصعب بن عمير ، وأناس ممن ثبت مع رسول الله فضر بني هذه الضربة ، ولكني ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كان عليه درعان . وقد اثني الرسول على شجاعتها فقال : ما التفت يوم أحد يميناً ولا شمالاً إلا ورأيتها تقاتل دوني .

شهدت بيعة الرضوان ، ثم شهدت وقعة اليمامة فقاتلت حتى قطعت يدها ، وجرحت اثنتي عشرة جراحة . وكانت فوق ذلك كله محدثة جليلة روى عنها ابنها عباد بن نعيم ، ومولاتها ليلي ، وعكرمة ، والحارث بن كعب ، وأم سعد ، وحديثها في كتب السنن الاربعة .

وبمثل ما قامت به ايضاً خولة اخت ضرار بن الأزور الكندي التي كانت اشجع

نساء العرب في عصرها ، وكانت تشبه بخالد بن الوليد في حملاته ، بل ظنها أناس في بعض وقائعها خالداً ، بل خالد نفسه كان معجباً بفرط شجاعتها ، وما ظهر من خلالها وشمائلها ، ولها اخبار كثيرة في فتوح الشام ومما حدث به الواقدي أنه لما أمر اخوها ضرار بن الازور في وقعة اجنادين سار خالد بن الوليد في طليعة من جنده لاستنقاده . فبينما هو في الطريق ، مرت به فارس معتقل رحمه ، لا يبين منه الا الحدق ، وهو يقذف بنفسه ، ولا يلوي على ما وراءه . فلما نظره خالد قال : ليت شعري من هذا الفارس ؟ وايم الله إنه لفارس ! ثم انبعه خالد والناس من ورائه ، حتى أدرك جند الروم ، فحمل عليهم ، وأمن بين صفوفهم ، وصاح بين جوانبهم ، حتى زعزع كتابتهم ، وحطم مواكبيهم ، فلم تكن غير جولة جائل ، حتى خرج وسانه ملطخ بالدماء . وقد قتل رجالاً ، وجندل أبطالا ، ثم عرض نفسه للموت ثانية ، فاخترق صفوف القوم غير مكترث ، وخامر المسلمين من القلق والاشفاق عليه شيء كثير . وظنه أناس خالداً . حتى إذا قدم خالد قال له رافع بن عميرة : من الفارس الذي تقدم أمامك ؟ فلقد بذل نفسه وميجه ، فقال خالد : والله لأننا أشد إنكاراً وعجاباً لما ظهر من خلاله وشمائله ، وبيننا القوم في حديثهم ، خرج الفارس كأنه الشهاب الثاقب ، والخييلُ تعدو في اثره ، وكلما اقترب احد منه الوى عليه ، فأنهل رحمه من صدره ، حتى قدم على المسلمين ، فأحاطوا به وناشدوه كشف اسمه ، ورفع لثامه ، وناشدوه ذلك خالد ، وهو امير القوم وقائدهم ، فلم يحرج جواباً ، فلما أكثر خالد اجابه وهو ملثم فقال : ايها الامير إني لم اعرض عنك الاحياء منك ، لأنك امير جليل ، وأنا من ذوات الخدور ، وبنات السور ، وانما حملني على ذلك اني محرقة الكبد ، زائدة الكمد ، فقال خالد : من أنت ؟ قالت انا خولة بنت الازور . كنت مع نساء قومي ، فأتاني آت بأن اخي امير . فركبت وفعلت ما رأيت . هنالك صاح خالد في جنده ، فحملوا وحملت معهم خولة وعظم على الروم ما نزل بهم منها ، فانقلبوا على أعقابهم .

(٣)

أدب المرأة وصبرها قبل الاسلام وبعده

كان نوحى الله المعجز سلطان على روح المرأة العربية ووجدانها ، وكان ايمانها عدتها في الحروب والنجائع وعتادها ، فهو يفرغ على قلبها نعمة الصبر والثبات ، وبعدها اذا كانت فاقدة واجدة بالجزاء في دار الرضوان ، وقد ظهر الفرق محسوساً بين حالتها في الجاهلية والاسلام . هذه اخنساء بنت عمرو بن الشريد الشاعرة المشهورة التي كانت تقول في اول امرها البيتين او الثلاثة ، فلما قتل شقيقها معاوية بن عمرو وقتل اخوها لأبيها صخر ، اكثرت من الشعر حتى سارت بقصائدها الركبان ، واشتهر نواحها على صخر حتى غدا مضرب الأمثال ، وصارت في اشهر شوارع العرب فمن ذلك قولها فيه :

ألا يا صخرُ لا انساك حتى أفارق مهجتي وُيشقَ رمسي
يذكرني طلوعُ الشمسِ صخرًا وأبكيه لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي من المتفجعين قتلتُ نفسي
ومن شعرها فيه :

ألا يا صخرُ ان ابكيت عيني فقد اضحككتني دهرًا طويلاً
ذكرتك في نساء معولات وكنتُ أحق من ابدى العويلا
دفعت بك الجليل وانت حيٌ فمن ذا يدفع الخطب الجليلا
إذا قبح البكاء على قتيلٍ رأيت بكاءك الحسن الجميلا

وقد قدمت على النبي صلى الله عليه وسلم مع قومها من بني سليم ، فأسلمت معهم ، فذكروا ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يستنشد الشعر فيعجبه شعرها وهو يقول :
هيه يا خناس وبومي يده ، حضرت اخنساء حرب القادسية ومعها بنوها اربعة رجال ، فوعظتهم ، وحرضتهم على القتال ، فلما أصبحوا باسروا القتال واحداً بعد واحد حتى قتلوا فبلغها الخبر فقالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وارجو من ربي ان يجمعني بهم في مستقر رحمة

علم النساء في العصر النبوي

وكانت المرأة العربية في الحرب صاحبة سيف وسان ، وفي السلم ربة برهان وبيان ، كانت في حلقات الدروس تشاطر الرجل كل علم ، وتضرب معه بأوفر سهم ، وفي اوقات العبادة حمامة المسجد ، ومحدثات النساء في عهد النبوة وما بعده كثيرات جداً ، وانك لتجد اسماءهن مدونة في كتب طبقات المحدثين وغيرهم . وقد استغرقت المحدثات المجلد السادس من مسند الامام أحمد بن محمد بن حنبل الا قليلاً ، ومسند السيدة عائشة - أي الاحاديث التي سمعتها وروتها - قد بلغ وحده اكثر من خمسين صفحة بعد المائتين [ص ٢٩ - ص ٢٨٢] . وقد تسلسل العلم في بعض البيوتات في السيدات حتى صارت الواحدة تروي احاديث النبي عن امها وجدتها ، ومن شواهد ذلك ما رواه الامام ابو داود في سننه قال : حدثنا محمد بن بشار ، حدثني عبد الحميد بن عبد الواحد ، حدثني ام جنوب بنت ثميلة عن ام سويدة بنت جابر عن امها عقيلة بنت أسمر بن مضرس : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : من سبق الى ما لم يسبق اليه مسلم فهو له قال : فخرج الناس يتعادون ويتخاطون ، اي كل منهم يسبق صاحبه بالخط ^(١) وهذا الحديث يوضح لنا كيف كانت المسلمات راويات لمحدثات وكيف كانت الفتاة العربية المسلمة تحفظ السنة وترويها عن امها وجدتها وهي في العقائد والعبادات والمعاملات والاخلاق والآداب وبهذه العلوم النافعة ، كانت تعنى النساء والفتيات العربيات في عصور الاسلام الزاهية ، فهل نجد بذلك عهداً ونعید لنسائنا وبناتنا ما فقدنه من تراث ديني أدبي تلک هي اوصاف العربيات المسلمات في عهد سلفنا الصالح ، وفي ظلال العلوم والآداب الإسلامية فما حال المجتمع الاسلامي اليوم ، وما شأن المرأة العربية في عصر المدنية الحديثة ؟

(١) يتخاطون : اي يسلمون على الارض علامات بالخطوط ، تسمى الخطط واحدها خطة ، وهي الأرض يخطها الإنسان لنفسه ، ويخط عليها خطأ ليعلم انه اختارها

المتعلقات في عصرنا الحاضر

لا يستطيع منصف أن ينكر النهضة الحاضرة فان الفتيات في عصرنا هذا يحملن الشهادات الابتدائية والثانوية، ومنهن من نالت الشهادة العالية في العلوم أو الآداب أو الحقوق أو الطب أو شهادة التخصص بالفلسفة والتربية، ولكننا لا نرى إزاء هذه الشهادات المدنية ما يماثلها أو بدايتها في دروس الدين . فان قيل وأين تخصص الفتاة الحاملة لشهادة العالمية أو الحقوق مثلاً في العلوم الدينية ؟ فالجواب من وجهين : (١) مطالبة الحكومة بافتتاح فرع التخصص الديني الذي كانت اعتزمت انشاء وجعله فرعاً للجامعة السورية ، ونفقاته قليلة ، وفوائده جزيلة ، ومطالبتها أيضاً بإنشاء الكلية الشرعية الإسلامية التي اجمع طلاب المعاهد الدينية والمدنية على المطالبة بها ، ثم أبدى بمطلبهم هذا مؤتمر الجمعيات الإسلامية وعززته بكتاب بعث به الى الحكومة ولعلها محققة للأمة هذا المشروع العظيم الذي يكون له إذا تم — كما قالوا — أثر الأثر في البلاد العربية وفي الشرق عامة ان شاء الله

(٢) إن الأزهر الشريف قد افتتح كليات التخصص الديني وجعلها لأبناء المسلمين عامة لا للمصريين خاصة ، فمن السهل على بناتنا من حاملات (البكالوريا) ولا سيما المجازات بالحقوق ان يضحبن بعض ذوي الحارم الى مصر وينهلن من معين الشريعة الصافي وبعذن رافعات ألوية الدين والعلم والإصلاح

كان النساء في صدر الاسلام علي علم بدينهن ، ومالهن وعليهن ، أما نساء عصرنا فهن يسألن ويستشكن مسائل كانت يرحى منهن انفسهن الجواب عنها مثل شهادة المرأة وميراثها ودينها ، ومثل تعدد الزوجات (او عدم المساواة كما يقال) ويسألن عن الحكمة في كون ازواج الرسول اكثر من اربع ، وأمثال هذه المسائل ، ونحن نحبب عنها بإيجاز :

شهادة المرأة

المرأة إنسان كامل كالرجل لها من الحقوق مثل ماله وعليها من الواجبات مثل ما عليه كما تقدم . ثم ان للمرأة من طبيعة الأنوثة ونظام الفطرة أموراً خاصة بها ، كتدبير المنزل وإدارة شؤونه ، كما ان للرجل خصائص لا تشاركه هي فيها كاحتمال المشاق ، والدفاع عن الحق بالقوة ، وبهذه الخصائص والمزايا التي انفرد كل نوع من الذكور والاناث ببعض منها ، كانت الأنثى أنثى ، والرجل رجلاً .

وان من المسائل التي لا تماثلها فيها مسألة الشهادة ، فانها تارة تكون شهادتها مثل شهادته ، وطوراً تكون أقل من شهادته ، وأحياناً تقبل شهادة النساء منفردات عن الرجال ، بل تتعين عليهن الشهادة وحدهن ، وذلك في الأمور النسائية التي لا تعلم الا من جهتهن . وقد راعى الاسلام في ذلك كله الحكمة ، ومشى مع المصلحة العامة التي تراعى في كل زمان ومكان .

فأما مسألة الشهادة على المال فالأصل فيها آية المداينة وهي في أواخر السورة الثانية (سورة البقرة) « يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه » الى قوله : واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تفضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » فقد علل إقامة الثنتين مقام الرجل الواحد بالخطأ الذي يعرض لهن فيما ليس من شأنهن أن يذكرنه ، لأنه شهادة على أمر مالي ، وليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ، ومن طبيعة الانسان أن يذكره لما يعني به ويهمه أمره ، ولا يرد علينا اشتغال بعض النساء في هذا العصر في الأمور المالية او في غيرها من أعمال الرجال كالهندسة والحقوق والزراعة والميكانيك وكالات الخراط في ملك الحكومة ، فان هذا خروج على نظام الفطرة والأمره ، وتضييع لمصالح المنازل

والأزواج والأولاد ، كما هو شاهد محسوس ، وكما نسمع الشكوى المرأة من يتخطون في بحران هذه الفوضى .

وأما ما كان من شأن النساء ان يذكرنه ولا ينسبته ، وهو من خصائصهن فقد قبل فيه رسول الله شهادة امرأة واحدة ، وثبت في الصحيح عنه أنه سأله عقبة بن الحارث فقال اني تزوجت امرأة فجاءت أمة سوداء فقالت انها أرضعتنا ، فأمره بفراق امرأته ، فقال : إنها كاذبة ، فقال : دعها عنك « فهذا الحديث صريح في قبول شهادة المرأة الواحدة وان كانت أمة وكانت شهادتها على فعل نفسها في أمر الرضاع ، والنبي لم يهتمها بالخطأ ولا بالنسيان على تراخي العيد وطول السنين .

وأيضاً فان الشريعة السمحة المنتظمة لمصالح البشر تقبل شهادة النساء منفردات عن الرجال ، في الأمور الخاصة بهن ، والتي لا تعلم الا من جيبتهن كالأعراس والمآتم والحمامات ، وكلولادة والرضاع ونحوها من الأمور التي تنفرد النساء بالحضور فيها والاطلاع عليها ، فان شهادة النساء وحدهن مقبولة فيما يقع في تلك المجتمعات ، حفظاً للحقوق وضبطاً للشؤون . ومتى كانت المرأة ممن يوثق بدينها وأمانتها كان المقصود بخبرها حاصلًا كما يحصل بخبر الرجل ، وقد نقل الشعراني في ج ٢ من كتابه الكبريت الأحمر عن الشيخ محي الدين ان المرأة تلحق الرجال في الأبوّة ، وتلحقهم أيضاً في بعض المواضع فنقوم مقام الرجلين ، ويقطع الحكم بشهادتها كما يقطع بشهادة الرجلين ، وذلك في قبول الحاكم قولها في مدّة عدتها ، وقبول الزوج قولها : ان هذا ولده ، فقد تنزلت ها هنا مقام شاهدين عدلين ، كما تنزل الرجل في شهادة الدّين منزلة امرأتين ، فتدخل في الحكم ، فيذه تولية لها من الله

ميراث المرأة

وأما الميراث فيقال فيه ما قيل في الشهادة أيضاً ، وهو انه يكون لها نصف ميراث تارة ، ويكون ميراثاً كاملاً كميراث الرجل تارة أخرى ، والباحث في

مسألة الميراث من الوجبة الاسلامية ينبغي ان يذكر قبل كل شيء ان الاسلام لم يجعل من المرأة رجلاً ثانياً ، فيحملها أعباء الحياة الخارجية ، بل حافظ على عملها الفطري ، ونظامها المنزلي ، وفرغها لتدبير مملكتها الداخلية ، وجعل الرجل كقلاً لها ، فهي ليست مجبرة على الكسب والنفقة بنتاً ولا زوجاً ولا أمّاً ، بل الرجل هو الذي ينفق عليها زوجاً وأباً . وأما مالها الذي يتكوّن لها من الإرث والمير والامتنار فهو يبقى لها (رأس مال احتياطي) تنفق منه اذا اضطرت اليه . ثم ان ميراثها الذي هو نصف ميراث الرجل هو في الحقيقة خير لها وأبقى من ميراثه الكامل ، فان نصيب الرجل يكون مقسماً بالنفقة ما بين زوجته وولده ، ويكون نصيبها لها وحدها كمالاً غير منقوص ، ولكن الاسلام لم يظلمه في ذلك لأنه هو العامل الكاسب ، أما هي فيعوقها عن الكسب تلك العوائق الزوجية كالحمل والولادة والأمومة والحضانة ، وأما مالها الخاص فقال احتياطي تنفق منه متى احتاجت اليه كما قدمنا . على أنها أحياناً يكون لها مثل الرجل كما اذا خلف الميت ذكراً فأكثر ، وكان له والدان ، فلكل واحد منها السدس ، فها سواء في هذه الفريضة لا يتفاضلان فيها ، وذلك لعظم مقام الام بحيث تساوي الأب بالنسبة الى ولدهما ، وان كانا يتفاضلان في الزوجية وغيرها . وكما اذا كان للميت أخ وأخت من أم فلكل واحد منها السدس ، فان كانوا اكثر من ذلك فعم شركاء في الثلث على المساواة التامة بين ذكورهم وإناثهم . والآيات الكريمة في سورة النساء ناطقة بذلك كله .

وجملة القول ان المرأة تارة يكون نصيبها نصف نصيب الرجل ، وتارة مثله ، وهي على كل حال بنته او زوجته او أمه ، وعليه وحده المشقة والنفقة ، ولها الراحة والهناء ، وعليه الغرم ، ولها الغنم ، فأني تكون مهضومة او مظلومة ؟ ووارحمتاه للرجل فلسان حاله بقول قول المتنبي :

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه أني بما أنا بك منه محسود !

دين المرأة

وأما عبادتها ، فهي مطالبة بأدائها كاملة كالرجال ، ومنها الصيام والحج والزكاة ، اللهم إلا الصلوات الخمس في كل يوم وليلة ، فالشارع اسقطها عنها في حال تلبسها بعذرهما الطبيعي الشهري ويتبدل أياماً وفي مدة النفاس في الولادات أيضاً وتمتد عشرات الأيام ، ولم يوجب عليها قضاءها بعد انقضاء تلك الأيام دفعاً للحرَج عنها ، « وما جعل عليكم في الدين من حرج » « ذلك تخفيف من ربكم ورحمة » وهذا هو معنى نقصان دينها ، فما هو بالشيء الذي تستحق عليه الملام في الاسلام .

أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم التسع

اجمع المؤرخون وعلماء السيرة على ان محمداً النبي العربي (صلوات الله عليه) اكمل ناشئاً في قومه ، وأعف رجل فيهم ، وقد خطبته خديجة بنت خويلد زوجاً لها في مطلع شبابه وهي في الأربعين فتزوجها فصارت أم المؤمنين ، وماتت عنده عجوزاً وقد بلغ الخمسين ، فكانت أولى نساءه وأم أولاده عدا ابراهيم (فانه من مارية القبطية) وكانت ذات حسب ونسب فاخترت الكفؤ الكريم .

اقامت معه ربع قرن فلم يتزوج عليها احداً ، بل لم يجمع في مكة بين ثنتين ، بل لم يتزوج بكراً غير عائشة (رض) فهل هذا شأن من يريد الحياة الدنيا وزينتها ؟ ثم إن تعدد ازواجه في المدينة أسباباً خاصة وعامة ، وحكماً ومقاصد سامية ، ونحن نلخصها فيما يلي :

إن الجمع بين أمهات المؤمنين لم يكن إلا بعد هجرة النبي إلى المدينة في السنوات العشر الأخيرة من عمره صلى الله عليه وسلم وعددهن تسع ، خمس من قريش ، وهن عائشة بنت ابي بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة بنت ابي سفيان ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة بنت أمية ، واما الأربع الباقيات فهن صفية بنت حيي الخيبرية ، وبسمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ،

وجويرة بنت الحارث المصطقية . والحكمة في تزوجه بعد هجرته الى المدينة بوضع نسوة في بضع سنين هو العناية باصلاح البيوت ، وتهذيب النفوس ، ومصاهرة القبائل ، وكفالة الأراامل ، وتربية الأيتام ، وأن تكون ازواجه قدوةً حسنة لجميع النساء في تلقي العلم والحكمة ، والبر والرحمة ، والتقوى والعبادة ، والتربية والتعليم وإليك البيان :

(١) جعل الله تعالى من بيوت نساء النبي صلى الله عليه وسلم مدارس داخلية يتعلمن فيها الدين : عقائده وعباداته ومعاملاته وأخلاقه لاسيما ما يختص منه بالنساء فقال « وَقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله » فالقرار في البيوت من اجل ان يتعلمن ما يحتاجن اليه ، وما يعظن به النساء والرجال ، ولهذا قال : « واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة » وآيات الله : براهينه وكتابه ، والحكمة سنة نبيه المينة مانزل اليه من ربه ، وانما نهى عن التبرج الجاهلي لأن المفتونات بحب الزينة لا يأتي منهن معلمات ولا مربيات ، ولأن الانفاس في المشتبهات ، والإسراف في اللذائذ يفسد بأس الدول القوية ، ويفقر الأمم الغنية ، فكيف بالأمة الناشئة الضعيفة ، ونساء النبي انما وُجدن عند النبي لتربية الأمة وتعليمها ، وارشادها واسعادها .

(٢) لما طلبن منه التوسع في الطيبات ، وملابس الزينة والترف في المعيشة ، نزلت في حقن آبتا التخير ، « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياء الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً »

لما نزلت هاتان الآيتان بدأ بعائشة وكانت أحسن اليه ، كما كان أبوها عز الرجال عليه ، فقال يا عائشة إني أحب أن اعرض عليك امرأة أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيرني ابوبكر ، قالت وما هو يا رسول الله ، فتلا عليها الآية ، قالت : أفيك يا رسول الله أستشيرني ابوي ، بلى اختار الله ورسوله والدار الآخرة ، ثم

خيرهن كهن فاخترن ماهو خير لهن ، اخترن الله ورسوله والدار الآخرة .
 (٣) أراد نساء النبي صلى الله عليه وسلم ان يقمن حيث أقامهن الله ورسوله صالحات
 قانتات مرييات معلمات ، مرشدات ومفتيات ، فاخترن الدار الآخرة ونعيمها الدائم ،
 ورضوان الله الاكبر ، على حظوظهن من هذه الحياة الدنيا ومتعها ومفاتها ،
 فأنابن الله كرامة لهن وجزاء على ما اخترن ورضين بأن قصر نبيه عليهن ، دون
 ان يتزوج او يطلق او يستبدل بهن غيرهن فقال : « لا يحل لك النساء من بعد
 ولا ان تبدل بهن من أزواج » الآية ، والحكمة في تحريم تطليقهن هو استدامة سماعهن
 ما بتلى في بيوت النبي من آيات الله والحكمة ، وذكر ذلك ونشره بين الناس لاسيما
 نساء الصحابة ، وأية فائدة ترجى لهن او لغيرهن من طلاقهن ، وهن أمهات المؤمنين
 تعظيماً وتحريماً على الرجال كالأمهات ، فأتت ترى ان النبي قد قصر على ازواجه
 الطاهرات ، وحرم عليه ان يمد عينيه الى غيرهن بالزيادة او التبديل ، بخلاف رجال
 أمته الذين أتيح لهم التعدد بشروطه ، وكذا التطليق ، وان يستبدلوا بأزواجهم غيرهن ،
 فكان قصره على دائرة ضيقة من الأزواج ، وكانت الأمة في دائرة أوسع منها
 أهذا هو الذي يسمونه تمتعاً بالنساء أو الأزواج ؟

نساء كهن ثيبات (عدا السيدة عائشة) ومنهن من لها اولاد ، تزوجهن في سن
 الكهولة أو الشيخوخة ، وحين الحاجة الى التبليغ والتعليم ، وربما كان الزوج بين
 كهن قبل نزول آية التحديد بأربع نساء ، فهي قد نزلت في السنة الثامنة من الهجرة
 وكان تزوجه بأخرهن وهي ميمونة بنت الحارث الهلالية في أواخر سنة سبع منها ،
 وحرم عليه تطليقهن لأنهن قد اخترن ما عند الله على زهرة الحياة الدنيا وزينتها ،
 على أنهن قد صرن أمهات المؤمنين فما الفائدة من طلاقهن وهن حرام على الرجال ؟
 أدليت الحكمة في بقائهن عند هذا الزوج الكريم ، والرسول العظيم ، متعلات
 معلمات ومثلاً علياً في تهذيب النفوس وسائر الصالحات ؟

تعدد الزوجات والطلاق

ان تعدد الزوجات والطلاق لم يختص بهما الاسلام ، وانما كانا شائعين عند اليونان والرومان والعرب وغيرهم قبل الاسلام ، وقد اباحت القوانين الأوربية والاميركية تعدد الزوجات والطلاق واصبح ذلك عندهم مستحسناً ، من بعد ان كان مستهجنًا ، ولكن اتعدد في عرفهم بقصد به التنقل في اللذائذ والتتبع بأنواع الحياة والشهوات ، فكان ذلك من اكبر الدواعي لتناقص النسل ، لا لازدياده ، والسامة من الحياة الزوجية لا الرغبة فيها .

اما التعدد الصحيح فله ضرورات ، منها ان تكون الزوج عقيمًا لا تلد ، او عندها مانع من مرض ، او دخلت في سن اليأس ، وهذه أسباب شخصية ، واما السبب الاجتماعي العام في جميع الشعوب والأقوام ، فهو زيادة النساء على الرجال لا سيما بعد الحروب العامة التي يهلك فيها الملايين من المحاربين ، ويبقى الملايين من النساء بلا رجال فتعدد الزوجات هنا ضرورة اجتماعية لتجديد النسل وتكثير الأيدي العاملة ، وهو من مصالح النساء التي تبقى محرومة نعمة الحياة الزوجية والأمومة ، ويجب أن نعلم بيقينًا ان المناداة بالمساواة بين الرجال والنساء في تعدد الزوجات والأزواج هو ضرب من الاباحة أو الجنون ، لأن تعدد الزوجات يزيد النسل ، وتعدد الأزواج يفسد الحرث والنسل . وقد قال بعض الأوربيين الاجتماعيين في بيان الفرق بين الرجل والمرأة في هذا المقام : لو أن الرجل قد تزوج بمائة امرأة في عام واحد لأمكن ان يكون له مائة ولد ، ولو تزوجت أنثى بمائة رجل في عام واحد لكان لها ولد واحد او لا يكون لها شيء .

آية التعدد

يظن كثير من الناس ان الآية المبيحة للتعدد بشرط العدل ، داعية الى الاستكثار من عدد الزوجات ، والاستمتاع بصنوف المشتبهات ، مستدلين على ذلك

بجملة منها ؛ وهي : « فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » غافلين عن أول الآية وآخرها ؛ وسياق الآيات التي جاءت معها وسباقها ؛ والأسباب التي أنزلت في شأنها ؛ لكن المتمعن في معناها يعلم أنها وردت في حفظ حقوق الضعفاء ، والتحذير من اكل اموال اليتامى والنساء ، وأولها : « وآتوا اليتامي أموالهم ، ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً . وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعدلوا »

وقد نزلت في اسباب عدة وما تمّ تعارض بينها :

- ١ - في اليتيمة تكون في حجر وليها ، فيعجبها مالها ، فيريد ان يتزوج بها طمعاً في مالها او بدون مهر المثل
 - ٢ - في منع اليتيمة من التزوج ليقى الولي متتماً بمالها لا ينازعه فيه الزوج
 - ٣ - في الاستكثار من النساء ، والاغارة على أموال اليتامى من اجل ذلك
 - ٤ - في ظلم النساء الكثيرات ، وعدم العدل بينهن .
- فجاءت الآيات قاضيةً بإبطال تلك المظالم ، التي كانت عليها الجاهلية في أمر اليتامى وأمر النساء ، أمراً بالتزوج بالمرأة الرشيدة ، إذا خيف من ظلم اليتيمة ، مبيحة الزيادة على الواحدة الى الأربع ، إذا دعت الدواعي إلى ذلك بشرط العدل بينهن ، فاذا خاف الرجل الظلم اكتفى بواحدة ؛ والأصل في سعادة البيوت ألا يكون للرجل أكثر من واحدة ينعم بها ؛ ويتعاون معها على تربية نسلها تربيةً سالحةً ؛ تعتز بها الأمة والوطن ؛ ولكن العوارض الطبيعية والاجتماعية هي التي تلجئه إلى التعدد كما تقدم .

الطلاق

الطلاق لا يكون الا عن ضرورة وبصيرة ، وذلك بأن يكون الزوجان قانعين بأن لا سبيل لبقاءهما على الحياة الزوجية لموانع جسمية أو نفسية ، خلقية

او 'خلقية' ، تجعل صفو العيش كدراً ، وتعرض النسل للمهانة والشقاء ؛ فالفراق في هذه الحال نعمة لا تقمة ؛ والزوجان سعيان به لا شقيان « وإن بتقرفا يغن الله كلاً من سعتة » وآية ذلك ان يكون الزوج في حال الطلاق عاقلاً مختاراً ؛ وان تكون الزوجة راضية مطمئنة ؛ فيمتعها متاعاً حسناً بكسوة ؛ ويفارقها بإحسان . أما إذا لم يكن موجب للفراق ؛ فلا يحلُّ له أن يضارَّها بالطلاق ، وعليه أن يذكر قوله تعالى « فإن أطعكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » فهذا ضمان وأمان لها من الله طول حياتها عنده ما دامت قائمة بواجبها .

أما طلاق الغضبان والسكران والطلاق من أجل قضية اجنبية لا علاقة للزوجة بها فهو طلاق الظالمين لأنفسهم ولأزواجهم .

والحاصل ان مسألة الطلاق كتعدد الزوجات شرعت للحاجة اليها ؛ ولها شروط وقيود تثبت نفعها وتمنع ضررها ؛ وليس لدينا وقت لإيراد النصوص عليها ، على أنها معلومة مشهورة . أما الطلاق في اوربا واميركا فالظاهر انه لا يكون الا لأسباب تقع بين الزوجين خاصة ؛ ولكنهم يطلقون لأهون الأسباب وأيسرها ؛ كقص الشعر ؛ وحقاق اللحية ؛ ولباس السهرة ونحو ذلك ؛ ولذلك كثر عندهم كثرة هائلة وليس لديهم احصاء عنه الآن وهو طلاق باعته السامة والملل ، وحب التنقل وله عواقب وخيمة ومنها ضياع النسل ، وقد نشرت جريدة الاهرام اول سنة ١٣٥٤ هـ وسنة ١٩٣٥ م اعتقاداً للقاضي لنديمي اشهر قضاة الطلاق في لوس انجلوس من ولاية (كليفورنيه) خلاصته ان الحياة الزوجية ستزول من بلادهم (امريكة الشمالية) وتحل محلها الاباحة والفوضى في العلاقة بين النساء والرجال في زمن قريب ، وهي الآن كشركة تجارية ينقضها الشربكان لأوهى الاسباب خلافاً لهداية جميع الأديان ، إذ لا دين ولا حب يربطهما ، بل الشهوات ، والتنقل في وسائل المسرات

رسم خطة عملية لاصلاح البيوت

البيوت مؤلفة من رجال ونساء وبنين وبنات ، والرجل هو المسؤول عن زوجه

وولده ، وكل من يتصل به ، وفي الحديث الصحيح : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » فيجب على الرجل ان يأخذ نفسه وأهله بأدب الدين الذي هو جماع الفضائل والآداب ، فان كان الرجل جاهلاً أو ضعيفاً لا يستطيع ان يعلم هو بنفسه ، ولا ان يكون قدوةً سالحةً لغيره ، فعليه ان يستعين على ذلك برجال الأمة وهم عمادها العاملون الأطهار ، وعلى العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ان يقوموا بواجب التهذيب والتعليم ، اما اذا كان الرجل آثماً وحاول أن يدخل الفسق في بيته ، ويلوث طهارته وطهارة زوجته وولده ، فما على المحصنات في البيوت والأولاد البررة الا ان يأخذوا حذرهم ، ويتعاونوا جميعاً على نصحه ومنعه ، عملاً بالآية الكريمة « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان »

وهذا الاصلاح الداخلي مطلوب من النساء لأنهن ربات البيوت ، ومربيات النفوس ، بل هن اميرات الداخل ، ومعامل المنازل ، ومازلن اقرب الى الفطرة ، وأعف من الرجال ، وابعد عن كل مسكر وميسر ، وسائر انواع المفساد ، والمرأة الحق بأمر الرجل بالمعروف ونهي عن المنكر ، وتطهير بيتها من جرائم الفساد التي يحاول الرجل الأثيم ان يلقح بها عياله واطفاله ، فتفتك بهم عاجلاً أو آجلاً كما فتكت به من قبل ، فعلى النساء ان يحذرن كل الحذر ، وان يملن حتى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن يذكرن الآية الكريمة « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض بأمر بالمعروف وينهون عن المنكر » فقد أعطت هذه الآية الكريمة هذا الحق للرجال والنساء على السواء ، ويدخل في هذا انكارهم حتى على الخلفاء والملوك والأمراء ، وقد كانت النساء يملن هذا في صدر الاسلام ويعملن به كالرجال .

وبعد فان لنا عتياً على المرأة الحديثة التي اخذت تعقد المؤتمرات في غير وطنها ، وتطلب حقوقها من غير دينها وأمتها ، وهي تدري او لاتدري أن لها في الاسلام من الحقوق ما لم تعطه امرأة قديمة ولا حديثة ، في شريعة من الشرائع الدينية او المدنية ،

فهي تطالب بحقوق لم تسلبها ، وتشكو أمة لم تظلمها ، وشرية لا تزال تعيش في ظلالها ، وتستنير بنورها ، فيا ليت النساء العربيات المسلمات يعقدن المؤتمرات النسائية في بلادنا ، ويجددن بها مكانة المرأة العربية أيام عصورها الذهبية ؛ فتعود عالمة عاملة ؛ آمرة ناهية ، كما فعلت تلك التي عارضت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في مسألة المهور ، وهو واقف يخطب على منبر الرسول ، فاعترف بخطئه ، ورجع الى قولها عن قوله ، وأرى ان هذا اقرب طريق للإصلاح لأنه متى صلحت الأفراد صلحت الجماعات ، ومتى صلحت الأمرة صلحت الأمة ، والسلام .

—••••—

محاضرة للاستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار ألقاها في ردهة المجمع العلمي العربي على الرجال — مساء الخميس الواقع في ٢٦ ربيع الآخر سنة ١٣٦٠ الموافق ٢٢ أيار سنة ١٩٤١ .
وعلى السيدات : مساء الخميس الواقع في ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٦٠ الموافق ٢٩ أيار سنة ١٩٤١

الطِّرِمَّاحُ بن حكيم الطائي

(١)

حياته

هو الطرماح بن حكيم بن الحكم بن تَقْرِ بن قيس بن جَعْدَر الطائي . ويكنى ابا تَقْرِ و ابا ضيبية . ينتهي نسبه الى طيء . وبنو طيء من العرب القحطانية كانت منازلهم باليمن فخرجوا منها بجاذنة سيل العرم فنزلوا بنجد والحجاز على القرب من بني اسد ، ثم غلبوا بني اسد على جبلي آجأ وسلمى من بلاد نجد فنزلوهما فعرفا بجبلي طيء ، ثم اقرقوا في اول الاسلام زمن الفتح في الاقطار . ولم بطون كثيرة في الشام والعراق ^(١)

كان تَقْرِ بن قيس أحد أجداد الطرماح شاعراً ذكر له ابو تمام الطائي في الحماسة هذين البيتين :

الا قالتُ مُبِيشةً مالتفرياً أراه غيرتُ منه الدهورُ
وانتِ كذلكِ قدُ غيرتِ بعدي و كنتِ كأنتِ الشعرى العبورُ
وكان قيس بن جعدر والدُ تَقْرِ ابن خالة حاتم الطائي أمره بعض ملوك بني جفنة بدمشق فدخل عليه حاتم فاستوجهه اياه وقال : ^(٢)

فككتَ عدياً كلها من اسارها فأفضل وشفعني بقيس بن جعدر
ابوه ابي والأم من أمهاتنا فأنعم فدتك اليوم نفسي ومعشري
وقيس بن جعدر هذا وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم وورد اسمه في كتب طبقات الصحابة ^(٣)

والطرماح من فحول الشعراء الاسلاميين ولد ومات في العصر الاموي ، ولم

(١) صبح الاعشى للفنشندي ج ١ ص ٣٢٠ وبلغ الارب له ص ٢٦٦

(٢) الشعراء لابن قتيبة ص ١٢٠ (٣) الاصابة في تمييز الصحابة ج ٥ ص ٢٦٨

ينص احد ممن ترجم له من المتقدمين على تاريخ ولادته او وفاته ولكن بعض اخباره وأشعاره تعين على معرفة ذلك على سبيل التقريب .

ولد الطرماح في الشام ونشأ بها كما نص على ذلك كل من ترجم له دون ان يعينوا المدينة او القرية التي ولد بها . ولا يبعد ان يكون مولده حوالي منتصف القرن الأول لمسيحي . ونحن لا نعلم من احواله وهو في الشام شيئاً بل جميع ماروي من أخباره كان بعد نزوحه عنها . ولكنه ظل يفخر بشاميته كما يفخر بقحطانيته قال :

ونجارك من أسد العراق كئائب لقحطان اهل الشام يوم استهلت
بهم ينصر الله الخليفة كما رأوا نعل صنديد عن الحق زلت
وقال :

فبعزنا نصر النبي محمد وبنا ثبت في دمشق المنبر
وقال :

يماني تبوع للساعي يداه وكل ذي حسب يماني
وانتقل من الشام الى الكوفة مع من وردها من جيوش اهل الشام ، ولا يبعد ان يكون ذلك بعد سنة سبعين اذ قمع عبد الملك بن مروان بجيوش اهل الشام نواثر العراق . وقد نكون غير مخطئين اذا قدرنا ان الطرماح وقتئذ كان في العقد الثالث من عمره كأكثر الجنود عادة . وتزل بالكوفة في تيم اللات بن ثعلبة وأخذ عن شيخ منهم مذهب الخوارج كما سيأتي . ولكن لم يرو عنه انه حارب مع الخوارج . وبالكوفة صحب الكميّ ابن زيد الاسدي الشاعر وتوثقت بينهما عرى الصداقة على اختلاف احوالهما . قال صاحب الأغاني : « كان الكميّ بن زيد صديقاً للطرماح لا يكادان يفترقان في حال من احوالهما فليل الكميّ لاشي اعجب من صفاء ما بينك وبين الطرماح على تباعد ما يجمعكما من النسب والمذهب والبلاد هو شامي قحطاني (خارجي) وانت كوفي نزاري شيمي فكيف اتفقتا مع تباين المذهب وشدة العصبية ؟ فقال اتفقتا على بغض العامة »^(١)

(١) انظر أيضاً البيات والتبين للاستاذ ج ١ ص ٥٢

وذهب من الكوفة الى بلاد فارس وذكر عدة مواضع منها في شعره مثل بم
وكرمان وفتح الريج والقافزان وقزوين قال :

ألا أيها الليل الطويل الا اصبح بم وما الاصبح فيك بأروح
لئن مرّ في كرمات ليلى فربما حلا بين تلي بابل فالضريح
وقال :

طربت وشاقتك البرق الياني بفتح الريج فبح القافزان
الم تر ان عرفان الثريا بهيج لي بقزوين احتزاني
وذكر الجاحظ في البيان والتبيين ^(١) ان الطرماح أقام بالري يشغل بالتعليم .
وعاد الطرماح الى الكوفة واقام بها الى ان توفي . قال ابن شبرمة : « كان
الطرماح لنا جليلاً ففقدناه ايماً كثيرة فقمننا بأجمعنا لننظر ما فعل وما دهاه فلما كنا
قريباً من منزله اذا نحن بنعش عليه مطرف اخضر فقلنا ان هذا النعش فقيل هذا
نعش الطرماح فقلنا والله ما استجاب الله تعالى له حيث يقول :

واني لمقتاد جوادي وقاذف به وبخفي العام احدي المقاذف
لا كسب مالا او أوّل الى غنى من الله بكفني عدات الخلائف
فيارب ان حانت وفاتي فلاتكن على شرجع ^(٢) بعلى بخضر المطارف
ولكن قبري بطن نسر مقله يجو السماء في نسور عواكف
وامسي شهيداً ثاوياً في عصابة يصابون في فج من الأرض خائف
فوارس من شيبان ألف بينهم تقى الله نزالون عند التزاحف
اذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى وصاروا الى موعود ما في المصاحف

ويقول ابو هلال العسكري في جزء من كتاب التصحيف ^(٣) ان الطرماح بقي
بعد الفرزدق . والفرزدق توفي سنة اثنتي عشرة ومئة . فلا يبعد ان يكون مات
بعده بقليل لأنه ليس في أخباره أو شعره ما يدل على انه عاش طويلاً بعد
ذلك التاريخ .

(١) ج ٢ ص ٢٥٢ (٢) الشرح النش (٣) مخطوط ص ١٥

ولم يرو عن الطرماح انه اتصل بأحد من خلفاء بني أمية او مدحهم ولكنه مدح من أمراء العراق يزيد بن المهلب وهو قحطاني وأشار الى مقتله يوم العقر سنة اثنتين ومئة بقوله :

كتائب من قحطان بالعقر اوقعت وقائع فيها أعظمت وأجلت
ومدح ابنه مخلد بن يزيد الذي توفي فتى في حياة ابيه حوالى سنة مئة^(١) كما
مدح خالد بن عبد الله القسري وهو قحطاني ايضاً (ولي العراق سنة خمس ومئة
وقتل سنة ست وعشرين ومئة) وكان خالد يحمله ويؤثره . ورد في الاغانى : ان
الطرماح دخل على خالد فانشده قوله :

وشيني ما لا ازال مناهضاً بغير غنى اسمو به وابوع
وان رجال المال اضحوا ومألهم لهم عند ابواب الملوك شفيح
احترمي رب المنون ولم ائل من المال ما اعصي به واطيع

فأمر له بعشرين الف درهم وقال امض الآن فاعص وأطع .
ومدح الطرماح خالداً فأقبل على العريان بن الهيثم وقال له : اني قد مدحت
الأمير فأحب ان تدخلني عليه ، فدخل اليه العريان فقال له : ان الطرماح قد مدحك
وقال فيك قولاً حسناً . فقال مالي في الشعر من حاجة . فقال العريان للطرماح تراء له .
فخرج معه فلما جاوز دار زياد اذا شيء قد ارتفع فقال يا عريان انظر ما هذا فنظر
ثم رجع فقال : أصلح الله تعالى الأمير هذا شيء بعث به اليك عبد الله بن ابي موسى
من سجستان فاذا حمر وبقال ورجال وصبيان ونساء ، فقال يا عريان اين طرماحك
هذا ؟ قال : ههنا قال : اعطه كل ما قدم به . فرجع الى الكوفة بما شاء ولم ينشده .
ووقعت مهاجرة بين الطرماح وبين الفرزدق كانت الطرماح موفقاً فيها كثيراً .
أما أهل بيت الطرماح فنعم ان اسم زوجه سلى فقد ذكرها في شعره كما ذكر
أيضاً اسم ابنه صمصامة قال :

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢ ص ٣٥٦

أيا سلم إن ارجع اليك فربما رجعت وأمرى للعدى غير مفرح
أحاذر يا صمصام ان مت ان يلى تراثي وإياك امرؤ غير مصلح
وورد في الأغاني ان له ابناً اسمه صبيرة ونصيرة هذا ولد اسمه يحيى روى
عنه ابو عبيدة . ومن احفاد الطرماح امان بن الصمصامة بن الطرماح كان شاعراً
نحوياً عالماً باللغة والشعر حافظاً للقريض وكان كاتباً عند المهالبة في افريقية
فلما تولى افريقية ابراهيم بن الأغلب سنة أربع وثمانين ومئة وكان ينتسب الى بني تميم
اطرحة لأن جده الطرماح هجا بني تميم^(١)

ثقافته وصفته وأخلاقه

كان الطرماح واسع الرواية تعلم النحو وطلب غريب اللغة وعلم الأدب وقد
يكون اول من تثقف من الشعراء الاسلاميين على سبيل الطلب والدرس . وهو
معدود في الخطباء الفصحاء كما هو معدود من فحول الشعراء . قال الجاحظ « ومن
الخطباء الشعراء الطرماح بن حكيم الطائي وكنيته ابو تفر^(٢) » وقال ايضا « وكان
الكيت والبعيث والطرماح شعراء خطباء^(٣) » ولكن خطب الطرماح لا تزال مرآ
مكتوماً في صدر الزمان .

أما حسن تعليمه فقد قال الجاحظ ايضا : « قال عبد الأعلى رأيت الطرماح
مؤدباً بالري فلم أر احداً آخذ لعقول الرجال ولا اجذب لأسماعهم الى حديثه منه »
ولقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده كأنهم قد جالسوا العلماء^(٤) »
وفي الأغاني^(٥) ان الكيت أنشد قول الطرماح :

إذا قبضت نفس الطرماح اخلقت عرى المجد واسترخى عنان القصائد
فقال اي والله وعنات الخطابة والرواية والفصاحة والشجاعة .

(١) مقدمة ديوان الطرماح عن معجم الادباء . ياقوت ج ٢ ص ٣٦١ وبنية الرواة للسيوطي ص ٢٠٠

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٥٢ (٣) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٧٢ (٤) البيان والتبيين ج

٢ ص ٢٥٢ (٥) ج ١٠ ص ١٢٩

وما وصل اليانا من شعر الطرماح مع بعض أخباره يدل على استقامة وجد وحزم وثقوى شأن أكثر الخوارج ، فلم يكن يميل الى العبث واللغو بل يغلب عليه الجد والتعاون كما انه كان بعيداً عن مداراة الأمراء ومداجبتهم يرى نفسه اكبر من أن يقف بحضرة امير وينشده الشعر . قال صاحب الاغانى : « وفد الطرماح بن حكيم والكيت بن زبد على مخلد بن يزيد المهلبى فجلس لهما ودعاهما فتقدم الطرماح لينشد فقال له أنشدنا قائماً فقال كلا والله ما قدر الشعر ان اقوم فيخط منى مقامي وأحط منه بضراعتي وهو عمود الفخر وبيت الذكر لما أثر العرب فقليل له فتنتح . ودعي الكيت فأشدد قائماً فأمر له بخمسين الف درهم فلما خرج الكيت شاطرها الطرماح وقال له : أنت ابا ضيبة أبعد همةً وانا ألطف حيلةً »

والطرماح مع علو همته وأتقته نخور تياه بفخر بنسبه ونفسه ويتعصب للقحطانية على العدنانية ويعتز بقبيلته واسلاميته وشأميته ، وأشعاره في ذلك غير قليلة . قال صاحب الاغانى : « مرّ الطرماح في مسجد البصرة وهو يخطر في مشيته فقال رجل من هذا الخطار فسمعه فقال انا الذي أقول :

لقد زادني حباً لنفسي اني بغض الى كل امرئ غير طائل
واني شقي باللاثام ولا ترى شقياً بهم الا كريم الشمالك
اذا ما رأي قطع الطرف بينه وبينى فعل العارف المتجاهل

مذهبه

« لما ذهب الطرماح من الشام الى الكوفة نزل في تيم اللات بن ثعلبة وكان فيهم شيخ من الشراة له سمت وحشة ، وكان الطرماح يجالسه ويسمع منه ، فرسخ كلامه في قلبه ودعاه الشيخ الى مذهبه فقبله واعتقده اشد اعتقاد وأصححه حتى مات عليه . » هكذا يقول صاحب الاغانى . ويقول ابن جرير الطبري ^(١) ان القهقاع بن قيس عم الطرماح كان يرى رأي الخوارج . فلا يبعد ان يكون الطرماح كتم

(١) تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٣

مذهبه وهو في الشام خوفاً من الخلفاء فلما ذهب الى الكوفة أعلنه . ويقول صاحب الأغاني انه كان يعتقد مذهب الازارقة من الشراة ويحمله الجاحظ^(١) من الصفرية . وكنتا الفرقتين من الخوارج وأصولهما واحدة واختلافهما في الفروع غير ذي بال^(٢) والازارقة أكثر تشدداً والصفرية ألين جانباً . ولعل ما قاله الجاحظ هو الصحيح لأنه لم يرو عن الطرماع انه قاتل مع الخوارج بل مدح بعض امراء العراق من قبل بني أمية وذكر خلافتهم بخير . وشعره يدل دلالة واضحة على انه يعتقد مذهب الخوارج اصح اعتقاد من ذلك قوله :

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له ان لم أفر فوزة تنجي من النار
والنار لم ينج من روعاتها أحد الا المنيب بقلب المخلص الشاري
وقوله :

لله در الشراة انهم اذا الكرى مال بالطلا أرقوا
يرجعون الحنين آونة وان علا ساعة بهم شيقوا
خوفاً تبيت القلوب واجفة تكاد عنها الصدور تنفلق
كيف ارجى الحياة بعدهم وقد مضى مؤنسي فانطلقوا
قوم شحاح على اعتقادهم بالفوز مما يخاف قد وثقوا
ولكنه لم يكن خشناً ولا متزمتاً وصداقه للكيت بن زبد الشيعي دليل على
دمايته ولين جانبه .

شعره

الطرماع من فحول الشعراء الاسلاميين تغلب عليه الجزالة حتى تنتهي به في كثير من شعره الى الغريب والمويس ، ويظهر على شعره أثر الاسلام والايمان بما أتى به والرغبة فيما دعا اليه والخوف مما نهى عنه فهو من هذه الجهة يشبه الفرزدق ويزيد عليه بالجد والتعاون وخلو شعره من العبث والمجون والغزل الفاحش .
نقرأ شعر الطرماع فترى نفس شاعر فارس جم المروءة حي الأنف كبير النفس

(١) البيان والبيان ج ١ ص ٥٦ (٢) انظر كتاب الفرق بين الفرق ص ٦٢ و ص ٧٠

حسن الايمان لا يكاد يصرف شعره في سبيل التكسب والزلفى بل يرسله معبراً عما
يختلج في نفسه من بواعث الشعر فيصف ويتغزل ويفتخر ويهجو ويرسل المثل وينطق
بالحكمة والموعظة . وتكاد تكون جميع قصائده الطويلة من هذا النوع لم يمدح بها
أحداً ولم يرث بها أحداً فأذا لوجه الشعر فشئ نفسه في زمن كثر فيه المداحون المستجدون
أما وصفه فهو أشبه بوصف شعراء الجاهلية يصور البادية وحياتها وطبيعتها
ومافي أرضها وسمائها على انه حضري نشأ في الشام ودخل بلاد فارس وأقام بها
ولكن إلهام البادية في وصفه أظهر وعزيف جنبها اوضح يعبق فيه الشبح والقيصوم
ويلع السراب وترغو الابل وهو في جملة وصف دقيق فيه حياة متحركة يتناول
الدقيق والجليل ولكن غرابة اللغة في كثير منه تجعله غريباً عن الأذواق .
وأما غزله ففيه حنين يبعث الحنو وتشوق يثير الوجد ولوعة تنتزى وعاطفة شريفة
يرسله أنفاساً حرة من غربته في بلاد فارس الى سلى التي ملكت قلبه وشغلته
عن سواها ، وسلى هذه هي امرأته وما أعجب قوله فيها :

كأن فؤادي بين أظفار طائر اذا سنحت ذكراك من غير منسحر
وذكراك ما لم تسعف الدار يئتنا تباريح من عيش الحياة المبرح
أيا سلم ان ارجع اليك فربما رجعت وامري للعدى غير مفرح
أصمصام ان تشفع لأملك تلقها لها شافع في الصدر لم يتبرح
هل الحب الا انها لو تعرضت لذبحك يا صمصام قلت لها اذبحي

«وصمصامة هذا ابنه» ولا شك في ان الغربة ارهفت عاطفة حب الأهل والبنين
والوطن في نفسه وجعلته مشفقاً من حوادث الزمان يخشى ان تغتاله المنية وهو بعيد
عنهم قال :

أحاذر يا صمصام ان مت أن يلي تراثي واياك امرؤ غير مصلح
اذا صك وسط القوم رأسك صكة يقول له الناهي ملكت فأسجع
وناصرك الأدنى عليه ظعينة تيمد اذا استعبرت ميد المرنج

مفجعة لا دفع للضم عندها سوى سفحان الدمع من كل مسفع
 اذا جثتها تبكي بكى وتذكرت مع الحزن صولات امري غير زمح
 وأما نخره فمن ابواب شعره الجيدة ينم على اعتداده بنفسه وزهوه بها وافتخاره
 بفضائله الخاصة وكرم قبيلته وماثرها واحتقاره للطبقة الدنيا من الناس وعدم احتقائه
 بالعامه وما أعرف فخراً احلى شجيرة من قوله :
 « لقد زادني حباً لنفسي أني » الأبيات

يتبع

خليل مردم بك

كلمة (فند شمع)

(من أين جاءت ؟ وكيف استعملت ؟ وشي من تاريخها)

أضع اليوم رسالة بعنوان (مكتبة آل المغربي بطرابلس الشام . وصفها وتاريخ جمعها وذكريات عنها) وقد كفتني الكتابة في هذا الموضوع رصيفي الاستاذ الفيكنت فيليب دي طرازي . لأنه مزعم تأليف كتاب باسم (خزائن الكتب العربية) وهو الكتاب الذي نوّه به الاستاذ رئيس المجمع في الجزء الأول من السنة الماضية .

وبينا انا استعرض كتب خزانتنا اذا كتاب من مخطوطاتها عنوانه (كتاب شرح ديوان ابي العلاء المعري لابن الدرة) (كذا بالهاء ذات النقطتين في آخرها) وتحت هذا العنوان عنوان آخر هذا نصه (مَفْطُ العقيان والحلى لعروس ديوان ابي العلاء . بل ضوء الفند . من سقط الزند . للمرحوم الشيخ محمد الدرا) كذا بالالف في الآخر بدل الهاء) وهو أحسن شروحه اه وقد قال المؤلف في مقدمة شرحه مانصه (وقد كنت حين الشروع في هذا الشرح سميت (مَفْطُ العقيان والحلى لعروس ديوان أبي العلاء ثم اني بعد الفراغ منه والاتمام . رأيت في عالم الخيال والمنام . أنني استقدح زنداً . واستصبح منه فنداً . فعبرت ذلك ان سميت : ضوء الفند . من سقط الزند) ثم قال المؤلف في خاتمة الكتاب إنه فرغ من تأليفه في جدة سنة ١٠٦٤ هـ ويض المؤلف منه اربعة كرايس الى ان قدم بلده دمشق . وتوفي فيها سنة ١٠٦٥ هـ وقام بعده ابن اخته عبد الحق بن علي الدرا فأكمل يياض الشرح في سنة ١٠٩٥ هـ ولعل مخطوطة خزانتنا هي نفسها التي كتبها عبد الحق . وقد بحثت عن نسخة أخرى سواها لدى آل الدرا وفي المكتبة الظاهرية وفي فهرست دار الكتب المصرية فلم اظفر بشي . والسفط بالفاء المفتوحة وعاء الطيوب والجواهر ونحوها . اما تسمية الكتاب بالاسم الثاني اعني (ضوء الفند) فهو موضع تساؤل : من اين جاءت

كلمة (فند) الى لغتنا العربية واذا لم تكن عربية بل دخيلة معرفة فكيف جاز للمؤلف ان يستعملها منذ ٣٠٠ سنة ؟

عهدي بكلمة (فند) وتضاف الى الشمع فيقال (فند شمع) - أنها عامية محضة وكنت من يوم نشأت اسمع الناس في طرابلس يقولون (فند شمع) ويريدون بالشمع الشمع الذي يستضاء به بل اذا انعمنا النظر في كلامهم نراهم يريدون به في اكثر الأوقات عدة شمعات تباع في غلافها اتخذ من الورق الشخين الأزرق . ويقال احياناً (دزبنة شمع) مكان (فند شمع) وقد راجعت عن كلمة (فند) كل ما عندي من كتب اللغة فلم اعثر عليها كما راجعت معجم شمس الدين سامي ومعجم لاروس والمعجم الانكليزي فلم أرها بين كلمات هذه اللغات وسألت اخواننا اهل دمشق عما اذا كانوا يستعملونها في لهجتهم اليومية فقالوا انهم لا يعرفونها . ولا سمعوا بها . فمن أين وصلت الى مؤلف (ضوء الفند) وهو دمشقي النشأة والوفاة حتى سمى كتابه بها منذ ثلاثة قرون . ثم خطر لي ان اراجع معجم اليسوعيين (الفرائد الدرية) فوجدته يقول (فند الشمع وجمعه فنود Bougie. Cierge) وضبطاه (فند) بالكسر وعهدي بالطرابلسيين انهم ينطقونها بالفتح . وجمعها في الفرائد على فنود والاقيس ان تجمع على افتاد اذا صح انها مكسورة الفاء . وقد وضعت أمامها العلامة التي تفيد ان الكلمة عربية عامية وان اكثر استعمالها بين عامة لبنان . لكنه (اي صاحب الفرائد) لم يشر الى المعدن التي منه نبتت . وعنه اغتربت . فمن أين جاءتنا اذن ؟

وأخيراً رجعت الى الحاج علي أكبر الشيرازي وهو شيخ معمر من النزلاء الايرانيين بدمشق وقد اعتدت ان استفتيه في الكلمات الفارسية او الايرانية الحديثة فلعل (فندا) من هذه الكلمات وقلت له انها تدل على معنى الشمع فقال انه لا يعرفها وانما يعرف كلمة (فندك) وبذلك أنه وهو صغير في شيراز كان يرى ادمه يتخذون اناه صغيراً من زجاج يملؤونه ماء ويصبون على الماء مذوب الشمع وعلى الشمع شمعة او فتيلة صغيرة يستضيئون بها في الليل مكان البترول وانهم يسمونها (فندك)

هذا ما قاله فلعل كلمة (فندك) جاءت مع السلع التي كانت ترد إلينا من إيران في القرن الماضي وما قبله ثم حُرِفَت إلى كلمة (فند) واظتناداً على الشمع . وإثناء الاستصحاب الذي ذكره الحاج علي أكبر يسمي في دمشق (إدارة) وفي طرابلس الشام (نواصة) و (إرّاية) وإذا لم يصح أن (فند) إيرانية وإن أصلها فندك . كان لنا أن نتبناها نحن معشر العرب ونُدَّعي عربيتها حتى تقوم لغة أخرى فتستلحقها . وثقيم الدليل على نسبتها إليها :

* * *

(الفند) بكسر الفاء لها في اللغة العربية عدة معان لا يمكن أن يكون معنى (الفند) جاء منها . اللهم إلا من معنيين :

(الأول) أن الفند يكون بمعنى (الطائفة من الليل) كما في نهاية ابن الأثير . فهل يسمح لنا أن نقول أن استعمال (فند الشمع) جاء من هذا المعنى على تأويل أن الظلمة تنجاب وتكشف بنور هذا الشمع . ولا أنكر أن في هذا التوجيه تكلفاً : لأن الظاهر أن يقال : شمع الفند أي شمع الظلام لا فند الشمع أي ظلام الشمع (الثاني) أن (الفند) في اللغة يكون أيضاً بمعنى الفصن من أغصان الشجر . وفند الشمع أو شمعاته هي شبيهة بأغصان تغرس ليلاً في المجالس . فيُجَنَّى منها بدل الثمار نوراً يطرد الخناس . فهل يوافقني قارئ الكريم على أن معنى (الفند) جاء من هذا المعنى المجازي ثم تنوحي بالمرّة أن الفند بمعنى الفصن وصار يفهم منه معنى الشمع حتى صار الشمع معنى حقيقياً له . ومثله كثير في كلمات اللغة العربية : تكون الكلمة مجازاً ثم تصبح بسبب تواتر الاستعمال حقيقة .

نرجع إلى عبارة المؤلف (الدرّ) في مقدمة كتابه وهو قوله (استدح زندا . واستدبح منه فندا) فمعناه : استوري من الزند نوراً كنور الشمع . وقوله (سميته ضوء الفند من سقط الزند) السقط الشرر المتناثر من الزند . فيكون المعنى : سميته ضوء الشمع المستخرج من شرر الزند . مريداً بذلك أن شرر أبي العلاء كالشرر

فهو (اي المؤلف) استخرج منه نوراً . ازداد به الشرر ظهوراً . لكن المؤلف لو قال
(على سقط الزند) مكاتب (من سقط الزند) لكان احسن
وقال ناسخ المخطوطة عبد الحق الدرا في آخرها مانصه (ولم تزل هذه اللؤلؤة
(يعني كتاب خاله) في صدفة المسودة . تمضي عليها مدة بعد مدة . وهي كالعتقاء .
يسمع اسمها . ولا يرى جسمها . حتى كادت تخفى . ونور هذا الفند يطفى . إلى
أن يسر الله تبييضها الخ

فانظر كيف ان كلمة (فند) قد مرنت عليها السنة الدماشقة في ذلك العهد .
الى هذا الحد . ويزيدك دلالة على ذلك ان المؤلف لم يفسر في كتابه لمن جاء
بعده معنى كلمة (الفند) مع انه فسر نحو الف كلمة من عويص الكلمات . ونسي هذه
الكلمة الواحدة التي جعلها اسماً لكتابه . ولا سيما انه سخط له الطف المناسب لتفسير
معنى (فند الشمع) . وذلك انه فسر لنا في تأليفه قول (ابي العلاء) يخاطب الدهر:
(تستأثر العقبان في جوها وتزل الأعصم من فنده)
فسر كلمة (الفند) بالقطعة من الجبل لكنه لم يفسر لنا كلمة الفند بمعنى الشمع .
ومن أية لغة جاءت ؟ ومن أي جانب على لغتنا دمرت ؟ ألا يكون هذا من
مواضع العجب ؟

ولقائل ان يقول ان المؤلف رأى كلمة (الفند) معروفة المعنى مألوقة الاستعمال
بين اهل زمنه ومثلها لا يحتاج الى تفسير . وهذا كما اذا قام احدنا والف رسالة
في تكذيب ما تناقلته العرب من أخبار الغيلان وسمى رسالته (إيقاد البترول على
اخبار النول) أثراه يفسر لنا معنى كلمة (البترول) الأعجمية ؟ . وهكذا اشتهرت
كلمة (الفند) بمعنى الشمع بالنسبة الى الدماشقة في زمن المؤلف فأصبح تفسيرها
بما لا حاجة اليه

على ان كلمة (فند) ان كانت عادت فماتت في دمشق فانها لم تزل حية - في ما
أظن - في طرابلس الشام وما يليها من مدن الساحل .

وتتبع تاريخ كلمات اللغة ونطورها بحث لغوي جديد يحتفل له علماء اصول اللغات من علماء اوربا . فينبغي للشغليين منا في علم اللغة ان ينحروا هذا العلم الطريف جانباً من عنايتهم واهتمامهم

وبهذه المناسبة نقول : انه كان قديماً لصنع الشمع والمتاجرة به سوق رائجة في دمشق : أيام كان ركب الحج والحجاج يغدون ويروحون بين الشام والحجاز وكان الحجاج واهلهم ومودعوهم يهدون ويندرون الشموع للمسجد النبوي والأضرحة الشريفة . وكان في دمشق معامل وعمّال وعائلات ترتزق من صنع فنود الشمع . وما زال الى اليوم يسمى بعض هذه العائلات بالشماح . ففي هذا المحيط تولدت كلمة (الفند) بمعنى الشمع وكذلك تولدت مثل هذا التولد بين النصارى بالنسبة إلى الشمع الذي يهدى من مزارات القدس وإليها كذا أخبرني ليف من قساوسة الروم الأرثوذكس .

* * *

والشيخ محمد مؤلف ضوء الفند ترجمه المحي في (نفحة الريحانة) وفي (خلاصة الأثر (جزء ٤ ص ٢٤٩) وتكرر اسمه فيه بلفظ (الدرا) بالألف لا (الدرّة) بالهاء . وقال عنه : إنه حضر دروس الشيخ عبد الرحمن العمادي والنجم الغزي . ورحل الى القاهرة . وجاور بمكة . وعمل فيها شرحاً على (سقط الزند) ثم ادركه المرض ولم يكمل الشرح !! وجعل كتابه يرسم خزانة الشريف (زيد بن محسن) وقال : إنه ولد سنة ١٠٢٨ هـ وتوفي بدمشق سنة ١٠٦٥ هـ ودفن بجبانة باب الصغير اه غير ان المحي اخطأ في قوله : ان المؤلف لم يكمل شرحه على سقط الزند بل تقول إنه اكمله تأليفاً . لكنه لم يكمله تبليغاً . فأكمل تبليغه ابن اخته (عبد الحق) كما قلناه عن مخطوطتنا في صدر مقالنا هذا .

اما ان اسم المؤلف (الدرّة) بالهاء او (الدرا) بالألف فأذكر خلاصة ما سمعته من الاخوان الدمشقيين في التفرقة بينهما قالوا : في دمشق امرتان بهذا الاسم احدهما مقيمة في دومة احدى مدن الفوطة . والاميرة الأخرى وافدة من حمص واوطنت دمشق منذ القديم . وزاد آخر فقال والأسرة الدومانية هي التي تكتب (الدرّة) بالهاء

على اسم الطائر المعروف الذي يسمنا صوتاً يحكي كلام الناس . اما الأميرة المحصية فيكتب اسمها (الدرآ) بفتح الدال وبالألف المقصورة وزاد ثالث ان اصل (الدرآ) (الدرآء) بهمزة في آخرها على وزن غرآء فقصرت قال : وإنما لقيت هذه العائلة بالدرآء لأن رجالها اشتهروا بخاصة جزيلة النفع إلهية الصنع : ذلك ان الموضع من النساء اذا خانتها درتها . وخافت على طفلها . قصدت كبير بيت الدرآ فيضع يده المباركة على ثديها . ويتلو دعاءً عجيباً توارثوه بينهم فيستدر لبنها . وتصبح (درآء) غزيرة اللبن . بعد ان كانت (جدآء) لا لبن في ثديها .

اقول : لكن اهل اللسان لا يعرفون كلمة (الدرآء) بمعنى المرأة ذات الدر وانهم ربما يقولون في صفتها (درور) لا (درآء) فقولهم (الدرآ) اذن من مخترعاتهم وعلى هذا يكون معنى (بيت الدرآ) العائلة المنسوبة الى المرأة (الدرآء) التي ردوا لهفتها . وأرجعوا إليها درتها . وهناك احتمال آخر وهو أن تكون كلمة (الدرآ) محرفة عن (الدرّة) بمعنى لبن الموضع الذي يسيل من ثديها . ومؤلف (ضوء القند) من هذا البيت على ما يقال .

المغربي



المكثرون من التأليف والمجودون فيه^(١)

من مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق كتابان عظيمان : كتاب الكواكب الدراري في تبويب مسند الامام أحمد على ابواب البخاري لجامعه ابي الحسن علي بن عروة الحنبلي من أهل القرن التاسع ، وكتاب تاريخ دمشق الكبير لواضعه الحافظ ابي القاسم ابن عساكر من أهل القرن السادس .

هذان السفران الجليلان آيتان ناطقتان على طول نفس القدماء في التأليف ، وجد من الأول مجلدات كثيرة ضخمة الموجود منها اربعة وأربعون مجلداً متفرقة ، وما وجد منها المجلد الثاني والعشرون بعد المئة فلا يظن ان الكتاب بلغ أقل من مئة وخمسين مجلداً في التفسير والحديث والاصول والفقه وتراجم الخنايلة ومباحث في الفلسفة والكلام والتاريخ والأدب ، فهو معلمة اسلامية حقيقية ضمت بين جوارحها اشهر كتابات علماء الخنايلة وكبار مجتهدى الأمة مثل شيخ الاسلام ابن تيمية وابن قيم الجوزية وابن رجب وغيرهم من الاعلام .

وأما تاريخ دمشق فمنه الآن نسختان نسخة في عشرين مجلداً ونسخة وقعت في عشرة مجلدات ضخمة وهي تامة وكان كتب في ثمانين مجلداً . ولقد جرى ذكره في مجلس حافظ مصر زكي الدين المنذري وطال الحديث في امره واستعظامه فقال الحافظ : ما أظن هذا الرجل الا عزم على وضع هذا التاريخ من يوم عقل على نفسه وشرع في الجمع من ذلك الوقت ، والا فالعمر يقصر عن ان يجمع فيه الانسان مثل هذا الكتاب بعد الاشتغال والتنبه . قال ابن خلكان : ولقد قال الحق ومن وقف عليه عرف حقيقة هذا القول ومتى يتسع للانسان الوقت حتى يضع مثله وهذا الذي ظهر هو الذي اختاره وما صح له هذا الا بعد مسودات ما يكاد ينضب حصرها وله غيره تواليف حسنة . ويعتبر ابن عساكر على كثرة ما كتب من المجودين في تأليفه افتح اي كتاب من كتب التراجم ولا سيما تراجم أهل القرون الستة الأولى للإسلام ،

(١) من مسامرة للاستاذ محمد كرد علي انقأها في مذباع الشرق في بيروت راجع المجلد الخامس والمجلد

الثامن من مجلة التنبيه

تسقط على مبلغ عناية رجالنا بالتأليف وتوفرهم على النفع ، وقد يظن ان معظم ما خلفوه من كتبهم هو ديني محض ولا أثر لهم في العلوم الدنيوية ، ولكن بعضهم جمعوا الدين والدنيا وكانوا بمتقدون بأن العلوم بأمرها نافعة .

هذا ابو محمد بن حزم الظاهري ، وأهل الظاهر نقاة القياس والتعليل ، وهو معدود في الطبقة الأولى بين علماء الدين ومع هذا تجده نأليف ممتعة فيما نعتبه من علوم الدنيا فقد ذكر غير واحد من علماء الاندلس ان تصانيفه في الفقه والحديث والاصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الادب والرد على المخالفين نحو من اربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين الف ورقة . وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان قبله الا لابي جعفر محمد بن جرير الطبري ، فانه أكثر أهل الاسلام تصنيفاً فقد ذكر ابو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر الفرغاني في كتابه المعروف بالصلة وهو الذي وصل به تاريخ ابي جعفر الطبري الكبير ان قوماً من تلاميذ ابي جعفر خلصوا ايام حياته منذ بلغ الحلم الى ان توفي في سنة ٣١٠ وهو ابن ست وثمانين سنة ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته فصار لكل يوم أربع عشرة ورقة ، ومن جملة تأليفه التفسير الكبير والتاريخ الذي هو أصح التواريخ وأثبتها وكلاهما مطبوع متداول وهو الذي قال لتلاميذه : هل لكم أن أملي عليكم كتاباً في التاريخ قالوا وكم يكون حجمه فقال : ثلاثون الف ورقة فاستعظموا ذلك وارادوه على الاختصار حتى أملاه عليهم في ثلاثة آلاف ورقة فجاء كما رأينا اليوم احد عشر مجلداً ضخماً أملاه بهذا القدر وهو يحوقل ويقول : ماتت المهم . لأن تلاميذه لم يوافقوه على جعل تاريخه ثلاثين الف ورقة . ومن أهم تأليف ابن حزم : كتاب « طوق الحمامة » وهو من أجمل ما كتب ادب في العشق والفرام ، وما كان من المستغرب في عصره وعصره زهو العلم في الاندلس ان يتحدث العالم الى الناس بشعوره وعاطفته .

وابن جرير في نظري وابن حزم في إكثارهما من التأليف كانا غاية الكمال

في الإجابة المجمع عليها مثل ابن تيمية من أهل القرن الثامن فقد قال فيه أحد واصفيه ان له من المؤلفات والقواعد والفتاوى والأجوبة والرسائل والتعاليق ما لا ينحصر ولا ينضب ولا أعلم أحداً من المتقدمين ولا من المتأخرين جمع مثل ما جمع ولا صنف نحو ما صنف ولا قريباً من ذلك ، مع ان تصانيفه كان يكتبها من حفظه وكتب كثيراً منها في الحبس وليس عنده ما يحتاج اليه ويراجعه من الكتب . وقال غيره : كان الامام يكتب في اليوم واليلة من التفسير او من الفقه او من الأصول او من الرد على الفلاسفة الأوائل نحواً من أربعة كراريس او أزيد ، وما بعد أن تصانيفه الى الآن تبلغ خمسمائة مجلد وله في غير مسألة مصنف مفرد في مجلد ، وجمع بعض الناس فتاويه بالديار المصرية مدة مقامه بها سبع سنين في علوم شتى فجاءت نحو ثلاثين مجلداً وقيل ان تأليفه تبلغ ثلاثمائة مجلد . وكل ما كتبه وأملاه مجيد فيه للغاية كان علي الأيام موضع اعجاب اوليائه واعدائه .

ومثله ابو الفرج ابن الجوزي الواعظ من علماء القرن السادس صنف في فنون عديدة وكتبه أكثر من أن تعد وكتب بخطه شيئاً كثيراً والناس يغالون في ذلك حتى يقولون انه جمعت الكراريس التي كتبها وحسبت مدة عمره وقسمت الكراريس على المدة فكان ماخص كل يوم تسع كراريس . وهذا شيء عظيم لا يكاد يقبله العقل ويقال انه جمعت براية أقلامه التي كتب بها حديث الرسول فحصل منها شيء كثير ، وأوصى أن يسخن بها الماء الذي يغسل به بعد موته ففعل ذلك فكفت وفضل منها . وهو من المعدودين في المجودين .

ومن المكثرين من التأليف المجودين للغاية ابن الهيثم الرياضي الطبيعي فقد عدد ابن ابي أصيبعة مصنفاته في زهاء اربع صفحات هذا عدا ما ضاعت دساتيره منه لما فارق البصرة والاهواز وانتقل الى مصر قال : وما أظنها تنقص عن مئة مجلد . ومثله الفارابي احد فلاسفة الاسلام كان مكثراً من التأليف ، وقد اضاع أكثرها لأنه كان يكتب في رقاع كبها اتفق ويختار الفلاة ومجاري الأنهار

م (٥)

للتأليف فنظير الاوراق التي يكتبها . والفارابي أحد فلاسفة الاسلام ذو فنون شتى وفكر بديعة مخترعة .

ومثلهما ابو الريحان البيروني له سيف الرياضيات والنجوم اليد الطولى ، وكان مكباً على تحصيل العلوم منصباً على التصنيف ، لا يكاد يفارق يده القلم وعينه النظر وقلبه الفكر ، دخل عليه بعض اصحابه وهو يجود بنفسه فقال له في تلك الحال : كيف قلت لي يوماً حساب الجدات الفاسدة فقال : أفي هذه الحال قال : يا هذا أودع الدنيا وأنا عالم بها أليس خيراً من أن أخليها وأنا جاهل بها قال : فذكرتها له وخرجت ، فسمعت الصريح عليه وأنا في الطريق . قال يا قوت : ولما تصانيفه في النجوم والهيئة والمنطق والحكمة فانها تنفوت الحصر ورأيت فيرستها في وقف الجامع بمرور في ستين ورقة . وقال بعض مترجميه : ان كتبه زادت على حمل بعير . ولم يبق منها سوى أربعة كتب طبعت في اوربا . وكل ما وضع من تأليفه في العلوم مما ترتفع به رؤوس أبناء هذه الأمة على كر الدهور والاعصار .

والبيروني أحد كبار فلاسفة العرب يجي في طبقة ابن سينا وابن رشد وابن زهر والفارابي ومثلهم الكندي فيلسوف العرب وكتبه في علوم مختلفة مثل المنطق والفلسفة والهندسة والحساب والارثماطيق والموسيقى والنجوم وغير ذلك وقد عدد اسماءها ابن النديم في ست صفحات . ومثله ابو بكر بن زكريا الرازي صاحب المصنفات الممنعة في الطب والعلوم العقلية والادب وهو الذي استنار الغريون لأول نهضتهم بمصنفاته وأول ما طبع عندهم من تأليف العرب كتبه واجادته في تأليفه على كثرة ما كتب منها مما تفاخر به هذه الملة . ومن الكثيرين من التأليف والمتفوقين فيه حنين بن اسحق وثابت بن قرة وتأليفهما فلسفية علمية وهما مع الكندي من أئمة النقل من اليونانية الى العربية ومن المحسنين في تواليهم ومن الكثيرين من التأليف الفزالي والماوردي وعمرو بن بحر الجاحظ والزحشري وهذان الأخيران من أئمة المعتزلة قيل في الأول ان تأليفه تعلم العقل وفي الثاني ان تأليفه يكتفى بها في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان والأدب ولا يظن أن أحداً ألف من الكتب المتنوعة أكثر مما ألف الجاحظ ولا اجاد اجادته في

كل ما خاض عيابه وتآليفه بلغت ٣٥٠ أكثرها من المنقود ويا للأسف . ومن الكثيرين من أئمة المعتزلة القاضي عبد الجبار قيل ان تآليفه التي وضعها في كل فن اربعمائة الف ورقة . ومن أئمة المعتزلة كثيرون من جاوزت مؤلفاتهم المئة والخمسين الف ورقة . وكتب المعتزلة بادت كلها بتعصب خصومهم عليهم ولم يبق منها سوى كتب تعد على أصابع اليد من ألوف أنفوها . وكان خلف بن احمد (٣٩٩) كما قال العتيبي في تاريخه مشي الجنب من أطراف البلاد لسمحة كفه وغزارة سببه ، وأفضاله على أهل العلم وحزبه ، وقد مدح على ألسنة الشعراء والعلماء بما هو سائر وذكره في الآفاق طائر . وقد كان جمع العلماء على تصنيف كتاب في تفسير كتاب الله تعالى لم يغادر فيه حرفاً من أقاويل المفسرين وتآويل المتأولين ونكت المذكرين ، واتبع ذلك بوجوه القراءات وعلل النحو والتصريف وعلامات التذكير والتأنيث ، ووشحها بما رواه الثقات الاثبات من الحديث . وبلغني أنه انفق عليهم مدة اشتغالهم بمعونه على جمعه وتصنيفه عشرين الف دينار ونسخه بنيسابور موجودة في مدرسة الصابونية لكنها تستغرق عمر الكاتب وتستنفد صبر الناسخ الا ان ينقاسها النساخ بالخطوط المختلفة .

قال شارح التاريخ المذكور الفاضل الكرمانى : تفسير خلف مشهور مذكور وهو مائة مجلد وبعض مجلداته نقل الى خزانة الكتب بالمسجد المنيني من مدرسة الصابونية بعد خرابها وهي الآن فيها فله من ملك يعتني بأمر العلم دون من العلم ما يبقى له تذكرة على وجه الأيام .

ومن المؤلفين الأول الكثيرين من التأليف هشام الكلبي العالم بالنسب واخبار العرب وآيامها ومثالبها ووقائعها المتوفى سنة ٢٠٦ وكتبه تزيد على مئة وخمسين . ومنهم المدائني المتوفى سنة ٢١٥ جاءت أسماء كتبه في نحو اربع صفحات . ومنهم المرزباني من أهل القرن الرابع قال ان تآليفه بلغت ألوفاً من الاوراق . ومن الفقهاء والحفاظ الكثيرين من التأليف محمد بن ادريس الشافعي ، وداود بن خلف الاصفهاني ، وابو العباس بن سريج المعروف بالباز الاشهب من أئمة الشافعية ، كانت فهرست كتبه تشمل

على أربعمائة مصنف ، وقيل ان تصانيف الحافظ أبي بكر ابن البيهقي تبلغ الف جزء .
ولأبي بكر ابن الخطيب صاحب تاريخ بغداد المتوفى سنة ٤٦٣ قريب من مئة مصنف
وهو من المجيدين على اكثرهم . وللنسي من كتب الاصول والفقه والحديث والأدب
والتاريخ ما يقرب من مئة مصنف . وكان ابن سبعين ممن صنف تصانيف كثيرة .
وللأشعري خمسة وخمسون تصنيفاً وهو بالقليل الذي انتهى اليه من كتبه بعد في
رأس المصنفين والمفكرين .

وكان ابو حاتم البستي من أوعية العلم في اللغة والفقه والحديث والوعظ قال
ياقوت : وكانت الرحلة بخراسان الى مصنفاته وروي عن ابن ثابت ان من الكتب
التي تكثر منافعها ان كانت على قدر ما ترجمها واصفها مصنفات ابي حاتم محمد بن
حبان البستي التي ذكرها لي مسعود بن ناصر الشجري ووقفني على تذكرة باسمائها ولم
يقدر لي الوصول الى النظر فيها لأنها غير موجودة بيننا ولا معروفة عندنا وانا اذكر
منها ما استحسنت سوى ما عدلت عنه واطرحته . وهنا عدها فجاءت زهاء مائتين وخمسين
جزءاً والنموذج الذي انتهى اليه منها بعد غابة الكمال في التفكير الجيد والاحاطة
العظيمة بأطراف الموضوع . وبلغت مصنفات ابي بكر بن فورك المتكلم الاصولي
الاديب النحوي الواعظ قريباً من مائة مصنف .

ولأبي الحسين الراوندي صاحب المقالة المشهورة في علم الكلام ، وهو الذي
ينسب اليه اليوم ظلماً كل كلام فيه فسطة ومغالطة وكفر ، من التأليف نحو مائة واربعة
عشر كتاباً مع انه لم يتجاوز الاربعين من عمره .
ولحي الدين بن عربي تأليف كثيرة ذكر في اجازة كتبها للملك المعظم انه اجازه
ان يروي عنه مصنفاته ومن جملتها كذا وكذا حتى عده نيفاً واربعائة مصنف ،
والف رسالة عدد فيها كتبه كما جرت عادة بعض المؤلفين ان يترجموا انفسهم
ويذكروا مؤلفاتهم في رسائل خاصة مخافة ان يدس عليهم بعضهم ما لا يروقه
ويقول فيهم ما ليس فيهم .

وابن سميذ الأندلسي المؤرخ من المكثرين من التأليف ومنها الموضوعان الفريبان

المتعددا الاسفار وهما المغرب في حلي المغرب والشرق في حلي المشرق وغير ذلك قال لسان الدين حدثني الوزير ابو بكر بن الحكيم انه خلف كتاباً يسمى المزمرة يشتمل على وقر بعير من رزم الكراريس لا يعلم ما فيه من الفوائد الأدبية والاختبارية الا الله تعالى .

ومن المكثرين من التأليف لسان الدين بن الخطيب وابو العلاء المعري ولهذا كتاب سماه الأيك والغصون وهو المعروف بالهمزة والردف يقارب المئة جزء في الأدب قال ابن خلكان : وحكى لي من وقف على المجلد الأول بعد المائة من كتاب الهمزة والردف قال لا أعلم ما كان يعوزه بعد هذا المجلد . ومن المكثرين القاضي الفاضل قال ابن خلكان : اخبرني أحد الفضلاء الثقات المطلعين على حقيقة امره ان مسودات رسائله في المجلدات والتعليقات في الاوراق اذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد . وكان الحاجب المنصور ابو بكر محمد بن عبد الله بن مسلمة المدعو بالافطس أديباً جليلاً ومن تأليفه الكتاب المظفري المسمى بالتذكرة في خمسين مجلداً . وكتب عبد اللطيف البغدادي الفيلسوف نحو مئة وخمسين كتاباً وذلك في سياحات له طويلة دامت نحو اربعين سنة في العراق والشام ومصر والروم وليس لنا منها اليوم سوى أوراق قليلة وكلها ممتعة .

ومن المكثرين من التأليف والمتوسعين فيه احمد بن ابان بن السيد اللغوي الاندلسي يعرف بصاحب الشرطة ، وهو مصنف كتاب العالم في اللغة نحو مئة مجلد مرتب على الاجناس بدأ بالفلك وختم بالذرة وله في العربية واللغة كتب أخرى . ومثله ابن سيدة الضرير صاحب المخصص والمحكم وغيرهما وهو من المكثرين من التأليف والحفظ المبرزين في تأليفهم وكتابه المخصص آية في بابه .

ومن المكثرين ابو اسحق ابراهيم بن الاعلم البطليوسي له نحو خمسين تأليفاً . وبلغت تأليف محمد ابي طالب القرطبي المتوفى سنة ٤٣٧ - ٧٧ تأليفاً والفي عيسى ابن عمر النخوي نيفاً وسبعين مصنفاً في النحو قال سيبويه : جمعها بعض اهل البسار وأتت عنده عليها آفة فذهبت ولم يبق في الوجود سوى كتابين .

ومن المكثرين من التأليف عالم الأندلس عبد الملك بن حبيب السلمي المتوفى سنة ٢٣٨ قال المقرئ رأيت في بعض التواريخ ان تواليه بلغت ألفاً ومن أشهرها كتاب الواضحة في مذهب مالك . ولأبي عمرو الداني القرطبي من علماء القرآن مئة وعشرون مصنفًا . وكان يقول : ما رأيت شيئاً قط الا كتبه ولا كتبه الا حفظته ولا حفظته فسبته ، طبع علماء المشرقيات بعض ما عثروا عليه من تأليفه فأبنا فيها عجباً من ابداعه . وآخر من له التأليف الكثيرة من أئمة الأندلس ابو الحسن القلصادي المتوفى سنة ٨٩١ واكثر تصانيفه في الحساب والفرائض .

ومن عرفوا بسعة التأليف احمد بن ابي عبد الله من الامامية فان ما كتبه بلغ مائة تصنيف . ومن فقهاء الامامية ابو النصر العياشي ذكر ابن النديم اسماء كتبه في نحو صفحتين . ومنهم الاسكافي بلغت تأليفه سبعين كتاباً وكلها جيد مفيد .

وبقال ان تواليف ابي جعفر بن النحاس تزيد على خمسين منها شرح عشرة دواوين للعرب وذكروا ان محمد بن جماعة من أهل القرن الثامن كان اعجوبة زمانه في العلم وليس له في التأليف حظ مع كثرة مؤلفاته التي جاوزت الألف فان له على كل كتاب اقرأه التأليف والتأليفين والثلاثة واكثرها من شرح مطول ومتوسط ومختصر وحواش ونكت الى غير ذلك وكان يعرف علوماً عديدة منها الفقه والتفسير والحديث والاصلاح والجدل والخلاف والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والمنطق والهيئة والحكمة والزيج والطب والفروسية والرمح والنشاب والدبوس والثقاف والرمل وصناعة النفط والكيمياء وفنون أخر وعنه انه قال : اعرف ثلاثين علماً لا يعرف اهل عصري اسماءها .

ومن الذين اكثروا من التأليف احمد بن مكتوم من اهل القرن الثامن وعبد الرحمن الانباري من أهل القرن السادس وعيسى اللخمي الاسكندراني من أهل القرن السادس وثقي الدين السبكي من أهل القرن الثامن وله مئة وخمسون تصنيفاً والجلال السيوطي من اهل القرن العاشر اطلعنا على فهرست كتبه في سبع ورقات

ورجاء لا تقل عن اربعمائة مجلد وفيها الجيد ، واتهم بأنه سلفح او مسخ بعض المؤلفات وادعاها . ومنهم الصلاح الصفدي والمقريري وابن فضل الله وابن المكرم صاحب اللسان وكلهم من المكثرين من التصنيف والذين بلغوا غاية في الاجادة . ومنهم علي ابن زيد البيهقي من أهل القرن السادس ألف نحو ثمانين كتاباً بالعربية والفارسية .

وأنجوبة المؤلفين ابو موسى جابر بن حيان قال : ألفت ثلثائة كتاب في الفلسفة وألفاً وثلثائة كتاب في الحيل على مثال كتاب نقاطر (?) وألفاً وثلثائة رسالة في صنائع مجموعة وآلات الحرب ، ثم ألفت في الطب كتاباً عظيماً وألفت كتباً صغاراً وكباراً ، وألفت في الطب نحو خمسمائة كتاب الى ان قال : ثم ألفت كتباً في الزهد والمواعظ وألفت كتباً في العزائم كثيرة حسنة ، وألفت كتباً في النيرنجيات ، وألفت في الاشياء التي يعمل بخواصها كتباً كثيرة ، ثم ألفت بعد ذلك خمسمائة كتاب تقدماً على الفلاسفة ثم ألفت كتاباً في الصنعة (الكيمياء) يعرف بكتب الملك وكتاباً يعرف بالرياض .

* * *

التأليف في الأمم كالأشخاص منها العاقل والجيد والاجود ، والعاقل يقضى عليه ولا يبقى لأنه ساقط بطبعه ، والجيد قد يدوم لفائدة قليلة فيه ، اما الاجود فباق بقاء الأيام ، وكما ذكر اسم صاحبه حلا في الأفواه وتطلعت نحوه العيون . كان المجودون من المؤلفين في القرون الأولى للإسلام أكثر من المجودين في القرون الأخيرة ، لأن العلوم كانت أرقى والملوك يحرصون عليها ويأخذون بأيدي أهلها والأمة تبع ملوكها في باب العناية بها وبأهلها .

وانا اذا قلبنا صفحات التاريخ ، نجد في كل عصر العشرين والثلاثين من الرجال المبرزين ، وهؤلاء يجب أن يشاد بذكورهم كل حين . فمنهم ابو بكر بن مجاهد العارف بالقرآت وعلوم القرآن وهو آخر من انتهت اليه الرئاسة بمدينة السلام (توفي سنة ٣٢٤) ومنهم الخليل بن احمد (١٢٠) وهو أول من استخراج العروض وغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس . ومنهم صاحبه سيبويه قال ابن النديم وعمل كتابه الذي

لم يسبقه الى مثله أحد قبله ولم يلحق به بعده . قرأت بخط أبي العباس ثعلب اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان واربعون انساناً منهم سيبويه والاصول والمسائل للخليل . ومنهم ابو عبيدة (٢١٠) والاصمعي (٢١٠) وابو حاتم السجستاني (٢٥٥) والمبرد (٢٧٩) والزجاج (٣١٠) ومنهم ابن دريد (٣٢١) وابو سعيد السيرافي (٣٦٨) وابو الحسن الرماني وابو علي الفارسي (٣٧٠) والكسائي (١٩٧) والقراء (٢٠٧) والمفضل الضبي وابن الاعرابي (٣٣١) وابو عبيد القاسم بن سلام . وابن السكيت (٢٤٦) وابن قتيبة قال صاحب الفهرست انه كثير التصنيف والتأليف وكتبه في الجبل مرغوب فيها . وابو حنيفة الدينوري وابن خالويه ٣٧٠ وابن جني ٣٩٢ وابن اسحق صاحب السيرة قال ابن النديم وكان يحمل عن اليهود والنصارى ويسميه في كتبه اهل العلم الأول (١٥٠) وهشام الكلي قال اسحق الموصلي : كنت اذا رأيت ثلاثة يرون ثلاثة يذوبون علوه اذا رأى مخارقاً وابا نواس اذا رأى ابا العتاهية والزهرى اذا رأى هشاماً (٢٠٦) والواقدي وهو الذي خلف بعد وفاته ستمائة قمطر كتباً كل قمطر منها حمل رجلين وكان له غلامان مملوكان يكتبان الليل والنهار وقبل ذلك يبع له كتباً بالني دينار (٢٠٧) والمدائني (٢٢٥) والبلاذري صاحب كتاب البلدان واحد النقلة من الفارسي وابو الفرج الأصفهاني (٣٦٠) وعبد الله بن المقفع .

قال ابن النديم الكتب المجمع على جودتها عهد ازديشروكليلة ودمنة ورسالة عمارة ابن حمزة الماهانية والنيمة لابن المقفع ورسالة الحسن لأحمد بن يوسف الكاتب وسهل ابن هرون وكان ابو عثمان الجاحظ يفضل ويصف براعته وفصاحته . وقدامة بن جعفر والمرزباني (٣٧٨) والصابي وابو زيد البلخي كان فاضلاً في العلوم القديمة والحديثة تلا في تصنيفاته وتأليفاته طريقة الفلاسفة الا انه بأهل الأدب أشبه . واسحق الموصلي وبشار بن برد وابو نواس وابن الرومي والبحتري ومالك ابن أنس والشافعي وابو حنيفة وابن حنبل وابو يوسف والمزني وداود بن علي وابو عبد الله البخاري وابن جرير الطبري ويحيى النخعي ومتى بن بونس ويحيى بن عدي وابن زرعة وبنو موسى بن شاكر وثابت ابن قرّة وابراهيم بن سنان وعمر بن الفرخان ومحمد بن موسى الخوارزمي قال ابن النديم

وكان منقطعاً الى خزائن الحكمة للآمرون وهو من اصحاب علوم الهيئة وكان الناس قبل الرصد وبعده يعولون على زيجيه الاول والثاني ويعرفان بالسند هند. وبنو الصباح محمد وابراهيم والحسن قال في الفهرست والجميع من حذاق اتجمين بعلوم الهيئة والاحكام والبتاني صاحب الرجيح وحنين بن اسحق العبادي ، وقسطا بن لوقا البعلبي ويوحنا بن ماسويه واسحق بن حنين وجابر بن حيان .

وممنهم ابن وحشية وابن السيد البطليموسي قال ابن خلكان وهو مجيد في كل ما صنفه وكال الدين بن يونس (٦٣٩) قال ابن خلكان تبحر في جميع الفنون وجمع من العلوم ما لم يجمعه أحد وتفرد بعلم الرياضة وكان أهل الذمة يقرؤون عليه التوراة والانجيل وشرح لهم هذين الكتابين شرحاً يعترفون انهم لا يجدون من يوضحهما لهم مثله وكان في كل فن من الفنون كأنه لا يعرف سواه لقوته فيه . واحمد بن الطيب السرخسي كان مفتتاً في علوم كثيرة من علوم القدماء والعرب حسن المعرفة جيد القريحة بليغ اللسان مليح التصنيف والتأليف (٢٨٦) وثابت بن قرة لم يكن في زمانه من يماثله في صناعة الطب ولا في غيره من جميع اجزاء الفلسفة وله تصانيف مشهورة بالجودة وكذلك جاء جماعة كثيرة من ذريته ومنهم ابو سعيد ابنه سنان وابو الحسن ثابت بن سنان . وابو علي بن زرعة وعلي بن العباس المجوسي مصنف كتاب الملكي في الطب وابو الفرج بن الطيب وابو الحسن بن بطلان وابن الشبل البغدادي وابن رضوان وسعيد بن حبة الله وابن جزلة وامين الدولة بن التلميذ والبديع الاسطرابلي وابو الخير الحسن بن سوار وابو الفرج ابن هندو والرئيس ابن سينا وابو الفرج بن الطيب احيا من علوم الحكمة والمنطق مادثر وابان منها ما خفي وقد تيلذ له جماعة سادوا وأفادوا منهم المختار بن الحسن بن عبدون المعروف بابن بطلان . قال ابن بطلان : ان شيخنا ابا الفرج بن الطيب بقي عشرين سنة في تفسير ما بعد الطبيعة ومرض من الفكر فيه مرضة كاد يلفظ نفسه فيها وهذا يدل على شدة حرصه واجتهاده وطلب العلم لعينه . ولعلمهم لقبوه بالفسر لاستفراقه في تفسير ما بعد الطبيعة . ونفر الدين الرازي وابن جليل والنافقي الاندلسي قال ابن ابي أصيبعة وكتابه في الأدوبة المفردة لا نظير له في الجودة ولا شبيه له في معناه . وامية بن الصلت

وابن باجة وابو العلاء بن زهر وابن رشد وابن الرومية والمبشر بن فاتك وله تصانيف جليلة في المنطق وغيره من اجزاء الحكمة وهي مشهورة فيما بين الحكماء . واخطيب التبريزي والقطب الشيرازي والامام القزويني والجوهري وابن الحاجب ونصير الدين الطوسي وابن دقيق العيد وسيف الدين الآمدي والبيضاوي وابن الينطار وهؤلاء الثلاثة خلدوا بما صنفوا وأجادوا وأفادوا . وابن محلي الموصل وابن فلوس المارديني وابن مسكويه والمسعودي وابن خلدون وابن الاثير وابو الفدا وهؤلاء الخمسة اكبر الدعائم في تاريخ العرب كتبت لهم الاجادة التي ليس بعدها اجادة . وافضل الدين الخوافي قال ابو الفرج بن العبري وفي هذا الزمان اي في النصف الأول من القرن السابع كانت جماعة من تلامذة الامام فخر الدين الرازي سادات فضلاء أصحاب تصانيف جليلة في المنطق والحكمة كزين الدين الكشي وقطب الدين المصري بخراسان وافضل الدين الخوافي بمصر وشمس الدين الخسروشاهي بدمشق واثير الدين الابهري بالروم وتاج الدين الأرموي ومراج الدين الأرموي بقونية . وعبد المنعم الجلياني وابن الصلاح وموفق الدين ابن المطران وشرف الدين بن الرحيي والصاحب امين الدولة السامري وابن عبد ربه والبديع الحمذاني والحسن بن رشيق القيرواني . وابو هلال العسكري وابن جنبي وما طبع من كتبهما بأخذ بمجامع القلوب لما حوى من تحقيق وتدقيق .

وعمل حسان بن مالك بن ابي عبدة الوزير احد ائمة اللغة والآداب ومن اهل بيت جلالة ووزارة مثل كتاب ابي السري سهل بن ابي غالب الذي الف في أيام الرشيد كتاباً سماه بكتاب ربيعة وعقيل قال ابو محمد ابن حزم وهو من اصلح ماليف في هذا المعنى وفيه من اشعاره ثلثائة بيت وكان سبب تأليفه إياه انه دخل على المنصور ابي عامر محمد بن ابي عامر وبين يديه كتاب ابي السري يعجب به فخرج من عنده وعمل هذا الكتاب وفرغ منه تأليفاً ونسخاً وتصويراً وجاء به في مثل ذلك اليوم من الجمعة الاخرى وأراه إياه فسر به ووصله عليه .

ومنهم صاعد بن الحسن الربيعي وكان عالماً باللغة والآداب والأخبار . ومنهم
الراغب علي بن الحسين الاصمغاني والشريف المرتضى والقاضي الجرجاني وعلي بن
عبدة وابو حيان التوحيدي وابن القفطي والقلقشندي والنويري والحصري وابو علي
الفارسي وابو العلاء المعري وابن العديم والحريري . وابن الصائغ والقاضي ابو الفرج
المعافى قال ابن خلكان كان فقيهاً أديباً شاعراً عالماً بكل فن وله عدة تصانيف
ممتعة في الأدب وغيره وكتاب المجلس الانيس تصنيفه أيضاً (٣٩٠) وواصل بن
عطاء وياقوت الحموي ويحيى بن اكرم وابن السكيت وابن عبد البر وابن ابي الحديد
شارح نهج البلاغة . وابن الانباري وعبد القاهر الجرجاني وابو اسحق الاسفرايني
قال ابن خلكان اخذ عنه الكلام والاصول عامة شيوخ نيسابور وأقر له بالعالم اهل
العراق وخراسان وله التصانيف الجليلة (٤١٨) وابو اسحق الشيرازي قال ابن خلكان
انه صنف التصانيف المباركة المفيدة (٤٩٦) وابو حامد الاسفرايني (٤٠٦) وابن زيدون
وابو الفضل الميداني (٥١٨) والثعالبي صاحب اليتيمة والقاضي عياض قال ابن خلكان:
صنف التصانيف المفيدة قال وبالجمل فكل تواليفه بدبعة . والقاضي الباقلاني وابو الحسين
البصري له التصانيف الفاتحة في أصول الفقه وانتفع الناس بكتبه والحاكم النيسابوري
قال ابن خلكان امام اهل الحديث في عصره والمؤلف فيه الكتب التي لم يسبق الى
مثلا (٤٠٥) وابن دريد صاحب الجمهرة . وابو بكر الانباري (٣٢٨) والمسبحي (بالباء
لا بالياء) صاحب التاريخ المشهور وغيره من المصنفات (٤٣٠) وابو العباس القرطبي
انتفع الناس بكتبه واجاد فيها وعيسى بن دينار الاندلسي صاحب كتاب الهداية
الذي يقول فيه ابن حزم انه ارفع كتب جمعت في معناها على مذهب مالك وابن
القاسم واجمها للمعاني الفقية ومالك بن علي الفهري صاحب القصي وابو عبد الرحمن
بقي بن مخلد صاحب التفسير الذي قال فيه ابن حزم انه الكتاب الذي اقطع قطعاً
لا استنتي فيه انه لم يؤلف في الاسلام تفسير مثله ولا تفسير محمد بن جرير الطبري
ولا غيره وان تأليفه قواعد الاسلام لا نظير لها .

ومن الاندلسيين أيضاً القاضي منذر بن سعيد وابو محمد قاسم بن اصبح ومحمد ابن عبد الملك بن أيمن ويوسف بن عبد البر وابو الوليد الفرضي وابن سعيد المؤرخ والقاضي محمد بن لبانة والقاسم بن محمد المعروف بصاحب الوثائق واسماعيل بن القاسم وابن القوطية وابن التبانى واحمد بن فرج وابو الحسن الكاتب واحمد بن محمد بن موسى الرازي وحسين بن عاصم واسحق بن سلمة الليثي وابو مروان بن حيان صاحب التاريخ الكبير في أخبار اهل الأندلس نحو عشرة أسفار قال ابن حزم هو أجل كتاب ألف في هذا المعنى وله كتاب المتين في التاريخ وهو في ستين مجلدة ومحمد ابن عاصم . قال ابن حزم وأما الطب فكتب الوزير يحيى بن اسحق وهي كتب حساب رفيعة وكتب محمد بن الحسن المذحجي المعروف بابن الكتاني وهي كتب رفيعة حسان وكتاب التصريف لأبي القاسم خلف بن عياش الزهراوي ولئن قلنا انه لم يؤلف في الطب اجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع لنصدق . وفي الفلسفة كتب سعيد بن فتحون السرقسطي المعروف بالحمار وابي عبد الله محمد بن الحسن المذحجي . وفي الأزياج مسلمة وابن السمع واحمد بن نصر ومحمد بن عطية الغرناطي والحميدي والباحي وابن بشكوال وابن بسام صاحب الذخيرة . وابو القاسم صاعد بن أحمد الطليطلي وعريب بن سعيد القرطبي وابو محمد عبد الله بن ابراهيم الحجاري صاحب كتاب المسهب في فضائل المغرب لم يصنف في الأندلس مثل كتابه . وابو عبد الله بن ابي الخصال الثقوري صاحب مراجع الأدب وابن عصفور الاشبيلي التحوي . وابن الطراوة والسهيلي وابن خروف وابو عبيد البكري الاوني صاحب كتاب معجم ما استمعتم والمسالك والممالك . وابو علي الشلوبين وابن طفيل صاحب رسالة حي بن يقظان المقدم في علم الفلسفة وابن جبير صاحب الرحلة وابو علي القالي صاحب الأملالي قال الضبي وكانت كتبه على غاية التقيد وال ضبط والافتان وقد ألف في علمه الذي اختص به (اللغة والأدب) توافيف مشهورة نذل على سمة روايته وكثرة اشرافه وقالوا لئن كان كتاب إبي العباس المبرد (اي

الكامل) أكثر نخباً وخبراً فات كتاب ابي علي (النوادر) أكثر لغة وشعراً ومن كتبه في اللغة البارع كاد يحتوي على لغة العرب و كتابه في المقصور والممدود والمهموز لم يؤلف في بابيه مثله وتوفي سنة ٣٥٦

هذا ما أمكن جمعه من أسماء المؤلفين من العرب والمجودين فيه وما ذكرناه نموذج يتيسر التوسع فيه فيكون منه جزء مهم يقرأ دليلاً على سعة فضل العرب وبعد نظرهم في خدمة الدين والدنيا .



مخطوطات ومطبوعات

كتاب الذخيرة في علم الطب

تأليف

ثابت بن قرة

هو ابو الحسن ثابت بن قرة الحراني المولود يوم الخميس في ٢١ صفر سنة ٢١١ هجرية الموافقة للسنة ٨٢٥ مسيحية والمتوفى سنة ٢٨٨ هجرية الموافقة للسنة ٩٠٠ مسيحية عن سبعة وسبعين عاماً في زمن الخليفة العباسي الموفق بالله . وكان طبيباً شهيراً من أعظم أطباء العصر العباسي كثير التصنيف والتأليف فوضع من الكتب الطبية ما يزيد عن الخمسة والثلاثين مجلداً . وكان فيلسوفاً كبيراً من اعظم فلاسفة عصره ورياضياً بارعاً وفلكياً قديراً وله في الفلك والرياضيات عدد من المخطوطات التي لا تزال محفوظة في المكتبة الاهلية بمصر . وكان يجن اللغة السريانية وسواها من اللغات الشائعة في عصره فترجم منها شيئاً كثيراً الى اللغة العربية . وروى ابن أبي أصيبعة عنه في كتاب طبقات الأطباء انه وعى في صدره شتى العلوم فألف في الفلك والدين واللغات والموسيقى وغير ذلك .

وكان من صابئة حران حيث اشتغل في اول عهده جايماً للضرائب . ثم انه صحب محمد بن موسى حين ترك بلاد الروم فرآه وافر الذكاء وقدمه الى جماعة المنجمين الذين كان جلهم من الصابئين في بغداد مدينة السلام . وتروى عنه حكايات كثيرة وردت جميعها مفعلة في كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة . وكان من أخص تلامذته عيسى بن اصيد المسيحي فلأزم هذا أستاذه وتقل باشرافه عدداً من الكتب السريانية الى اللغة العربية .

وكتاب الذخيرة ألفه ثابت بن قرة لولده منان الذي كان طبيباً عالمًا نظير أبيه . وذكر ابن القفطي في كتابه تاريخ الحكماء مانعه « وفي ايدي الناس

كناش عربي جيد يعرف بالذخيرة» وقال عنه ابن أبي أصيبعة « كناشه المعروف بالذخيرة ألفه لولده سنان بن ثابت » . ويبدأ الكتاب بهذه العبارة : هذا كتاب الذخيرة الذي يشتمل على ما يحتاج اليه من علم الطب في وصف الداء والدواء على اوجز ما يتبها ان يكون تجربة امام زمانه (ثابت بن قرة) في العلوم الطبيعية جمعه أيام حياته (لابنه سنان بن ثابت بن قرة) وهو واحد وثلاثون باباً .

والكتاب الذي بين يدينا طبع في مصر ونشره الدكتور ج . صبحي أحد أساتذة الجامعة المصرية نقلاً عن مخطوطته الاصلية بمناسبة الاحتفال المئوي لمستشفى قصر العيني في القاهرة وقد صدره بمقدمة باللغة الانكليزية ليستطيع الأطباء الانكليز ممن حضروا الاحتفال المذكور الاطلاع على موضوع الكتاب والوقوف على اساليب المداواة التي كانت شائعة عند العرب . ثم ان الناشر اتبع المقدمة بمعجم عربي انكليزي حوى جميع ما ورد في الكتاب من الألفاظ الطبية وأسماء العقاقير فسهل مطالعته على الأطباء العرب والمستشرقين . وذكر الناشر ان وضع هذا المعجم كان على جانب عظيم من الصعوبة لأسباب منها ان العدد الكبير من اسماء الأمراض والنباتات الواردة في الكتاب معرب من اللغات اليونانية والفارسية والسريانية وان تحقيق اللفظة الواحدة كان يتطلب في كثير من الأحيان مراجعة عدد كبير من المؤلفات . وأعلن الناشر انه تمكن من الحصول على مخطوطة الكتاب من خزانة كتب المغفور له كيرلس الثامن بطريرك الاقباط وان هذه المخطوطة ذات شأن كبير لأنها الفريدة الباقية . ولأنها لم تنشر قبلاً باللغة العربية ولم تترجم الى احدى اللغات الأجنبية .

وأورد الناشر في مقدمته لمحة موجزة عن تاريخ الطب العربي فذكر ان العرب نقلوا جله عن اليونانيين وأضافوا اليه بعد ذلك شيئاً يسيراً مما اخذوه عن الفرس والمصريين وانهم وان لم يزيدوا من عهدهم شيئاً مما اقتبسوه من الأمم الأخرى فلم الفضل في أنهم تمكنوا من الاحتفاظ بالتراث القديم فصانوه من الضياع . وهم

الذين تناولوا من يد اليونانيين مشعل الطب الذي أخذ بالانطفاء فلم تخدم ناره في أيديهم بل صانوه طيلة خمسة قرون ثم سلموه الى من جاء بعدهم وهو اشدّ اشتعالاً وتألّفاً .

وعقبت الفتوحات العربية في القرن السابع نهضة فكرية عجيبة بلغت اوجها في القرنين الثامن والتاسع حين امتدت الدولة العربية من الدجلة الى ضفاف الوادي الكبير في الأندلس وأولع الخلفاء باقتناء المخطوطات النفيسة القديمة فكانوا يبذلون كل مافي وسعهم للحصول عليها لنقلها الى العربية ، حتى ان احد الفاتحين منهم حين املأته شروط الصلح على خصمه الامبراطور البيزنطي طلب ان يكون من حقه جمع المخطوطات اليونانية .

ثم ان الناشر يحاول ان يثبت ان اليونانيين نقلوا الطب عن العلوم المصرية حتى ان بعض الروايات تشير الى ان جالينوس تلقى علومه في مصر . على ان الأقدار شاءت ان لا يصل اليها من العلوم المصرية الا النزر اليسير ولو ان ما بقلنا منها كافٍ اذن لكان تاريخ الطب القديم غير ما هو عليه ولكننا نجد بين صفحاته من أسماء الأطباء المصريين القدماء غير اسم جالينوس وابقراط اليونانيين . واذا كانت مصر الحديثة تأخذ علومها عن اوربة فان هذه ترد اليها الآن ما اقتبسته منها في الازمنة الخالية حين كان العلم مستقراً في هليوبوليس والاسكندرية .

وقسم ثابت بن قره كتابه واحداً وثلاثين باباً بعض منها يتناول حفظ الصحة ولا يزيد عن اربعة ابواب والباقي يبحث في ما كان معروفًا من الأمراض الباطنة والظاهرة والجراحية وهي مرتبة بحسب اسبابها او بحسب الأعضاء التي تصيبها . وبلي كل مرض كيفية معالجته وفقاً للنظريات الشائعة في ذلك الحين ، والوصفات الطبية المستعملة في مداواته ومعظم هذه الوصفات مأخوذة عن جالينوس . والقليل منها عن ابقراط او سواه من قدماء المؤلفين .

وبذكر المؤلف في بعض المواضع نتائج تجاربه ومشاهداته الخاصة . وفي الجملة

فان كتاب الذخيرة مؤلف طبي كتب للطبيب الممارس ليكون مرجعاً له في اعماله اليومية وهو مبني على النظريات الطبية اليونانية وتسيطر عليه نظرية الاخلاط والارجح ان هذه النظرية وضعت في مدرسة الاسكندرية ثم تبناها جالينوس ونقلها عنه اطباء السريان الذين نقلوها بدورهم الى اطباء العرب .

وخلاصة هذه الفكرة كما كانت تفهمها العرب ان الجسد مركب من الجواهر الأربعة وهي الأرض والنار والماء والهواء ونسبها فيه مختلفة . والادوية مركبة من هذه الجواهر الاربعة ذاتها وتكتسب منها العناصر الاربعة الباردة والحر والرطوبة واليبس . ومن النادر ان تتوازن الجواهر الاربعة في الجسد ليحافظ على اعتداله بل ان احدها او اثنين منها يتغلبان فيصبح بارداً او رطباً او يابساً او حاراً ، او انه قد يكون في الوقت ذاته يابساً وحاراً او رطباً وحاراً . وقد لا تتساوى درجات هذه الصفات في الجسد فيصبح الشخص خليطاً لانتحارها فيه بدرجات متفاوتة او ان يتغلب فيه العنصر الواحد على سائر العناصر . وهكذا الحال في الأدوية فالمسك حار ولكنه اقل من الثوم والخردل ، والخبازي باردة ولكنها اقل من النيلوفر . ولكل من الحر والبرد والرطوبة واليبس اربع درجات ولكل من هذه الدرجات المختلفة طائفة من الأدوية . فيقال ان كذا او كذا دواء حار في بدء الدرجة الثانية او يابس في نهاية الدرجة الثالثة وقس عليه . فالصفات العامة للأدوية تألف اذن من اجتماع طبائعها الأولية . وفضلاً عن ذلك فللأدوية بعض الطبائع الخاصة . ثم ان أسباب الأمراض تستتج أيضاً من هذه العقيدة العنصرية فيكون سببها الحر او البارد او الرطوبة او اليبس فتداوى بالأدوية ذات الطبائع المعاكسة .

ومع ان ثابت بن قرة عاش في القرن التاسع فان المخطوطة التي نقل عنها الناشر مكتوبة في السنة ١٢١٠ بعد المسيح اي بعد وفاة المؤلف بثلاثمائة وعشر سنين وهي تنتهي بهذه العبارة « تم كتاب الذخيرة بحمد الله ومنه والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه الأكرمين وقع الفراغ من نسخه يوم السبت سابع جمادى الأولى سنة سبع وستائة » انتهى

مرشد خاطر

م (٦)

المختار

أحب الدكتور طه حسين بك في تقديمه الجزء الثاني من كتاب «المختار»
 أن يجعل بين الشيخ عبد العزيز البشري وبين صاحب الأغاني نسباً في اللغة ، أما
 أنا فاني أحب أن أذهب مذهباً أبعد ، اني أحب أن أجعل هذا النسب بين صاحب
 «المختار» وبين الجاحظ نفسه ، فالشيخ عبد العزيز البشري قد انسحب على أذيال
 الجاحظ في بعض فنه ، فان له تصرفاً في مفردات اللغة غير يسير ، ولقد زاد في
 محاسن تصرفه صفاء ذوقه ، واذا شئت أن أجمل الرأي في فن الشيخ عبد العزيز
 البشري فلا أجد عبارة أصح من عبارته في الشيخ سيد درويش ، فهو يقول فيه :
 وللرجل أذن موسيقية ، وله حس مرهف ، وفيه ذوق تام دقيق .

ولئن صدقت هذه الصفات في الشيخ سيد درويش فانها في الشيخ عبد العزيز
 البشري أصدق ، ولعل هذه الأذن الموسيقية هي التي مكنت صاحب «المختار»
 من إرسال ما أرسله من الكلام في فريق من رجال الموسيقى ، الذين حضر مجالسهم ،
 حتى استطاع أن يذوق محاسنهم ، وان ينه على مقابحهم ، وان يذهب في الإشارة
 الى ترديدهم وترنيمهم ، والى ترجيعهم وتنغيمهم هذا المذهب الذي ذهبه ، وما أظن
 ان قلماً من الأقلام في هذا العصر يستطيع أن يجري في وصف رقيق الاصوات
 وأجسها ، أو في وصف فنون النغم بمجامعها مجرى قلم الشيخ عبد العزيز البشري .

ولا رب في أن هذه الأذن الموسيقية التي خلقها الله لشيخنا البشري هي
 التي أعانت على تهذيب ذوقه اللغوي ، واذا جعلت بينه وبين الجاحظ نسباً في اللغة
 فاني لا أرمي الكلام على عواهنه فان له مقاطع في كلامه على الشيخ علي يوسف
 او على الشيخ سيد درويش ، او في مواطن غير هذه المواطن ، تظهر عليها آثار
 بلاغة الجاحظ .

واذا كان الشيخ عبد العزيز البشري نسيج وحده في شيء ، فانه نسيج وحده
 في تصوير الرجال ، فقد أعطاه الله كثيراً من خصائص التصوير ، فلا يكاد يتعاضده

شيء من الكلام على هيآت المصورين ، وعلى عقولهم وعلى قلوبهم ، وله في هذا الباب لهجة خاصة تباغت القارئ فتسليه وتسره ، وهذه اللهجة انما هي سر الصنعة في التصوير فلا يكاد يتفلت منه لفظ في هذا المجال ، ولو انصرف الشيخ عبد العزيز البشري ، وقد اختصه الله بما اختصه به من دقة البيان وطبعه على مثل ما طبعه عليه من التهكم ، الى مراقبة اخلاق أهل عصره ، على نحو ما فعله الكاتب الفرنسي « لايروير » : في القرن السابع عشر ، ودون نتائج هذه المراقبة في كتاب منفرد ، غير كتابه : في المرأة ، من دون أن يشتت رأيه في طائفة من الرجال لما ذهب أثر كتابه سجين الليالي !

ولقد حملته قدرته في بيانه على التجوز في بعض الأحيان في أمر من أمور النحو أو اللغة وهذا شأن كثير من أكابر الكتاب ، فانهم يتجوزون في طائفة من مواضع يانهم في مذاهب النحو واللغة اعتقاداً منهم ان هذا التجوز تغطي عليه حسناتهم . فهل يضر شيخنا الجليل ان يقول في بعض كلامه : قد لا يكون . . . وهو يعلم العلم كله ان « قد » هذه متصلة بالفعل المتصرف ، الخبري ، المثبت ، المجرد من ناصب وجازم وحرف تنفيس ، لا يفصل بينها وبينه فاصل ، اللهم الا القسم . وهل يضر شيخنا الجليل ان يدخل : «هما» على الفعل الماضي ، فيقول : «هما كان» ، و«هما استحدث» . . . وهو يعلم العلم كله ان «هما» من الجوازم ، ويحيط الاحاطة كلها بمعانيها الثلاثة : «هما تأتتا به من آية . . . على ان البحري أغضى قديماً على دخول «هما» الفعل الماضي ، ولم يذهب هذا الاغضاء بسحر شعره ! أم هل يضره ان يأتي بالتوكيد المعنوي قبل المؤكد ، فيقول في بعض كلامه : في نفس اليوم ، بدلاً من ان يقول : في اليوم نفسه ، وهو يعلم العلم كله ان التوكيد المعنوي يأتي بعد المؤكد !

أم هل يضره ان يستعمل فعلاً بتعدى بالحرف ، فيستغني عن هذا الحرف ، فيقول : ثم تقبل على صيغه ، تفتشها وتفرثها ، وهو يعلم انه يقال : فرّ الدابة ، كشف عن أسنانها لينظر ما سنّها ، وفرّ عن الأمر ، بحث عنه .

ان هذا كله لا يذهب بحسنات الشيخ عبد العزيز البشري ، فله أن يجمع صديقاً على صدقان اذا شاء ، وله أن يستغني عن جمعها على أصدقاء وصدقائه ، وله أن يقول : مضعوف البدن من أضعفه الله ويعدل عن : ضعيف البدن ، ان هذا كله صحيح ، وكله فصيح ، غير ان تباعد الشيخ الجليل عن أشباه هذا المألوف من الجمع ، وإسرافه في تنخله بعض ألفاظه ، مثل قوله : زلت له هذه الخلقة ، بدلاً من قوله : جاءته . يقبحانه في الذي نسميه التنطع في الكلام وقد نزهه الله عن كل تنطع وتنطس . على اني ارجو ان اكون قد أخطأت في هذه النظرات العجيبة ، فان الشيخ عبد العزيز البشري بغرف في البلاغة من بحر لا تكدره امثال هذه المكدرات .

سفيان مبري



كتاب السلوك

لمعرفة دول الملوك

طبع في القاهرة بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٩

قيل ان المؤرخ الكبير نقي الدين احمد بن علي المقرئ المتوفى سنة ٨٤٥ هـ مؤلف هذا الكتاب قد زادت تصانيفه على مئتي مجلد كبار . ومما كان هذا العدد مبالغا فيه فالمقرئ بلا جدال من المكثرين من التأليف والمجودين فيه . وقد طبع بضعة منها حتى الآن وأهمها « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » وهو السفر الذي اصبح اكبر مرجع الكل من يريد البحث في عمران مصر وتاريخها منذ القديم الى عصر المؤلف . ومما طبع له « التنازع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم » (ليدن) « ذكر ماورد في بني أمية وبني العباس (فينا) « الدرر المضية في تاريخ الدولة الاسلامية » (كبردج) النقود الاسلامية (الامتانة) « اتعاظ الخلفاء

بأخبار الخلفاء» (القدس) وطبع في مصر «البيان والاعراب عما في ارض مصر من الأعراب» «الأوزان والمكاييل الشرقية» «الطريقة الغربية في أخبار حضرموت العجبية»

ومما ألفت عليه الايام من كتب المقريري «كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك» وهو تاريخ مفصل لملوك الاكراد الايوبية والسلاطين المماليك التركية والجر كسية . وفيه تراجم مختصرة لبعض المشاهير الذين توفوا في كل سنة . وقد كتبه مؤلفه على نظام الحوليات وتنوّق فيه واخذ من المصادر المعتبرة التي يكاد بعضها يكون الآن في حكم المفقود . ولم يحاول ان يربط بين الحوادث فيجعل المتأثرات في ناحية معينة كما فعل ابن خلدون وابن الأثير بل اطلق عنان قلمه في التدوين على السنين والشهور .

وبقع الباحث في هذا السفر الجليل على حوادث مهمة قد لا يجدها في الكتب المطبوعة في فن التاريخ العربي ، ويقرأ في حوادث الايوبيين والمماليك واخبار ملوكهم وأمراءهم وما تحلل تلك العهود من الوقائع ما يظن نفسه معه امام قصص وروايات سرد فيها الدقيق والجميل من الحوادث بحيث لم يبق قول لمستزيد .

لاجرم ان في نشر السلوك تنمى سلسلة اخبار دولتين حكمتا مصر والشام وما اليها اعواماً ، وكان لها طابعها الخاص وميزاتها واذا أحب المؤرخون بعد الآن التوسع في الكلام على تينك الدولتين فيجدون المواد اللازمة لهم في كتاب السلوك مما كان بعضه مجهولاً .

ويقول الناشر الاستاذ محمد مصطفى زيادة من اساتذة التاريخ في الجامعة المصرية : ان كتاب السلوك على ايجازه احياناً قد حوى من الحقائق والاشارات ما لم تحوه مطولات المعاصرين كابن الأثير وأبي شامة وابن شدّاد وابن واصل وابن أبي الفضائل والنويري ويبرس المنصوري وابي الفداء ، وان المقريري كتب كتابه مستوفاة وزاد على هؤلاء المؤرخين ما انتقاء من مراجع أخرى . واستخدم الناشر تاريخي ابن واصل ويبرس المنصوري من المخطوطات لتصحيح في جملة ما استخدمه من التواريخ والمظان

وذكر ان المقريري انفرد بأشياء لم يسبق أحد إليها ومنها كلام السلطان العادل الأول بشأن وراثته الملك في الدولة الأيوبية (ص ١٥٢) ومنها الإشارة المهمة الى لفظ «البحرية» (٢٢٣) اذا قرنت الى الممالك، وقد ظنه جميع المؤرخين مشتقاً من بحر النيل وان فرقة الممالك البحرية التي تفرعت عنها دولة الممالك الأولى بمصر قد سميت بذلك الاسم ومنها غير ذلك .

ولاحظنا ان الاستاذ الناشر اعتمد على بعض علماء المشرقيات الذين خدموا كتاب السلوك او نقلوا عنه او نشروا قسماً منه اكثر من اعتماده على الأصول العربية، ويشير في هوامشه المفيدة الى ذلك مكتفياً بالاسم الافرننجي كأن المفروض ان يكون كل من يطالع كتاب السلوك مثلاً باللغات الأجنبية، وكان الأولى ان يترجم الاسم العربي كل مرة ويضع بجذائه الاسم الافرننجي .

* * *

صدر القسم الثالث من الجزء الأول من كتاب السلوك هذه السنة وقد صدر القسمان الأولان (في سنة ١٩٣٤ و ١٩٣٦) مطبوعين في مطبعة دار الكتب المصرية وبمنفقة لجنة التأليف والترجمة والنشر . وبلغ مجموع صفحات الأقسام الثلاثة مع الفهارس الممتعة ١١٧٨ ص بالحجم الكبير . ولأول نظرة في الكتاب يتبين للقارئ مبلغ عناية ناشره وما عناه في رد هذه المخطوطة الى الصواب وما رجع اليه من المراجع العربية والافرنجية، وما علقه في أسفل الصفحات شرحاً وبياناً لما ورد في المتن من الغوامض والمشكلات فدلّ بذلك على مبلغ تحقيقه واستحق ثناء الباحثين . ويقول الاستاذ انه صرف ثماني سنين في احياء هذا الكتاب وتأسف ضمناً ان صده هذا العمل عن التأليف في اجاث تروقه وتهمه ونحن نقول له ان نشر مثل هذا الكتاب الجليل بمثل هذا التحقيق من الاستاذ زيادة هو تأليف وزيادة . ونرجو ان يطول به العمر ويدوم له التوفيق ليم الكتاب على ما يجب ويجب له كل محب للتاريخ

وقد وقعت للصديق الناشر بعض هنات في الاعلام الشامية لا تقدر في كتاب ضخم كهذا اذا عرفنا كيف كان الأصل المنقول عنه من السقم والخلل ، وما خلا كتاب للقدماء حتى الآن من اشياء كثيرة من هذا التثيل ، عدت على ناشره فما قلت مكانة عمله ، والكامل من عدت سقطاته .

من ذلك (ص ٨٤) حسان (هكذا شكها وقال في الهامش انها بغير ضبط في س) والصحيح انها حسان بالضم قال ابو الفداء في تقويم البلدان (طبعة رينو ودي سلان يباريز) والبلقاء احدى كور الشراة وهي خصبة وقاعدة البلقاء حسان بضم الحاء وسكون السين المهملتين وفتح الباء الموحدة ثم الف ونون في الآخر وهي بلدة صغيرة .

(ص ١٧٤) ضيفة خاتون ابنة العادل شقيقة الكامل — ضيفة خاتون سميت ضيفة لأن أمها ولدتها بينما كانت أمها ضيفة في غير بيتها ، ومدرسة ضيفة خاتون ملازت باقية الى اليوم في الفردوس من ربض حلب . وضيفة خاتون كانت كشجرة الدر من النساء اللاتي حكمن في مصر والشام في الدولتين الأيوبيه والمماليك

(ص ٢١٩) ابو المظفر يوسف بن كزوغلو — ابو المظفر يوسف بن قزاوغلو اي ابن البنت اي السبط

ص ٢٣١ تبنين وهي الصواب وما ورد في الفهرس بثنين غلط

ص ٢١٣ نهر قزل ايرمك — ايرمق

ص ٥٣٢ بيزين — اظنها تيزين (بعد الزاي ياء ساكنة ونون) قرية كما قال ياقوت في المعجم من نواحي حلب كانت تعد من أعمال قنسرين وصارت في أيام الرشيد من المواصم مع منبج وغيرها

ص ٥٤٦ جسر يعقوب — جسر بنات يعقوب

ص ٧٣٥ قرية حرزما — فسرها الناشر بأنها بلدة بين ماردين ودينسر من

أعمال الجزيرة والصحيح أنها حَزَرٌ ما بتقديم الزاى ثم راء وهي قرية لا تزال معروفة في أول المرج مرج دمشق على مقربة من أقصى حدود الغوطة الشرقية

ص ٧٦٩ قرية شعر عمر - قرية شفرعم ، وهي قرية بينها وبين عكا بساحل الشام ثلاثة أميال وكانت منزلة صلاح الدين في حروب الافرنج كما قال ياقوت . وفيها تل المبشوح - تل المبشوخ نسبة لنهر المبشوخ شمالي شرقي عكا . وفيها قرية الفرح - قرية الفرج شمالي عكا وهي على مقربة من قرية القيسية . ومنها قرية طبرية - نرجح أنها الطيرة

ص ٨١٧ جوسية قرية على مسافة ستة فراسخ من حلب - الصحيح من حمص لا من حلب .

ص ٨٧١ فأقامت الأفراح في الأردوا - تكررت لفظة الأردوا بهذا الرسم في القسم الثالث وحقيقتها الأردو اي الجيش بدون الف في آخرها كما وردت في ص ٥٦٩ وقال انها لفظة مغولية معناها المعسكر

ص ٨٧٥ وافليس وبلادها - وابو قيس وبلادها ، وهو حصن مقابل شيزر ويقال لها اليوم سيجر قرب حماة

وفي الصفحة نفسها - كفرندين - كفرندين ، حصن بنواحي أنطاكية كما في ياقوت وأقرب الى الوضوح ما أورده ياقوت في مكان آخر وصف به هذه القلعة قال : شقيف دُبين : قلعة صغيرة قرب أنطاكية ودين ضيعة كالربض لها

ص ٩٠٢ الدرزية او الدروز قال الناشر انهم احدى فئات أهل لبنان وهم منتشرون أيضاً في جبل كسروان المتصل بسلسلة جبل لبنان - تقول ان جبل كسروان داخل في جبال لبنان وهو منها في الصميم والدروز يسكنون فيه قليلاً ويكثررون في الشوف والمثمن من عمل لبنان كما ان منهم ألوفاً في اقليم البلان من سفوح جبل الشيخ (جبل الثلج او حرمون) ووادي التيم تيم الله بن ثعلبة (حاصبيا وراشيا) وفي جبل حوران وبعض قرى عكا وقرى حلب وقرى دمشق

ص ٩٣٢ عقبة شجورا — وفي تقويم البلدان الشحورة عقبة بين دمشق والكسوة
 ص ٩٢٣ و ٩٢٨ ارواد (جزيرة رودس) والصحيح ان ارواد جزيرة صغيرة
 تجاه طرابلس وقرب انطربوس كما يظهر من المتن نفسه اما جزيرة رودس فبالغالب
 انها هي التي رأيتها في بعض المصادر «رود»
 ص ٨٧٥ وفراها الرحلية والجبلية — فسر الناشر الرحلية بقوله ولعل المقصود
 بالقرى الرحلية ما كان منها على طريق القوافل والرحلة . وهو تخرج بعيد والصواب :
 السلية والجبلية .

ص ٩٦٨ و ٩٨٧ شقيف تلمنس وهو حصن قرب معرة النعمان
 ص ٩٧٦ وعيدوا واعمالها — وعيدو واعمالها وعيدو قلعة بنواحي حلب
 ص ٩٨٧ قسمون — قسطون ، حصن كان بالروج من أعمال حلب
 ص ١١٤٩ قصر ام الحاكم — ام الحكيم وهو بمرج الصفر من أرض دمشق
 ص ٢٨ ١ باب الفراديس — باب العمرة — الصحيح باب العمارة وهو معروف
 الى اليوم .

محمد كرد علي

—••••—

كتاب شرح أسماء العقار

تأليف الشيخ الرئيس ابي عمران موسى بن عبيد الله الاسرائيلي القرطبي
 نشره وصححه وراجعه على النسخة الوحيدة الدكتور ما كس مايزهوف «المجلد الحادي والاربعون
 من مذكرات المجمع العلمي المصري»

لعلماء العرب والعربية عشرات من كتب مفردات الأدوبة ضاع معظمها على
 تعاقب الأيام والسنين ، وأشهر ما طبع منها مفردات ابن البيطار . وما ظل مجهولاً
 الى زمن قريب مفردات الغافقي التي كانت اكبر مصدر تقل عنه ابن البيطار ،
 ومفردات الشريف الادريسي . وكتاب شرح أسماء العقار لموسى بن عبيد الله
 المعروف بابن ميمون القرطبي .

وقد عثر الدكتور مايرهوف ، أحد أعضاء المجمع العلمي المصري ، في خزانة جامع أبيصوفيا في اسطنبول ، على نسخة من الكتاب الأخير هي حتى اليوم وحيدة في بابها ، فاستنسخها وترجمها الى الفرنسية وحقق موادها الأربع مائة والخمس ، مع مترادفات كثيرة لتلك المواد من عربية وسريانية ويونانية واسبانية وغيرها . ونص على الأسماء العلمية والفرنسية لهذه العقاقير ، وأشار الى الصفائف التي ذكرت فيها في ترجمة كتب ديوسقوريدس وابن سريون وابن البيطار ، وتحفة الإحباب في ماهية النبات والأعشاب ، وكشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب لعبد الرزاق الجزائري ، وفي معجم أسماء النبات للدكتور أحمد عيسى ، وغيرها من كتب النباتات الطبية القديمة والحديثة .

وذكر المدلولات القديمة والمدلولات الحديثة لأسماء النباتات الواردة في الكتاب ، ورد كثيراً من تلك الأسماء الى أصولها فقال عن بعضها انها من أصل عربي ، وعن أخرى انها من أصل يوناني او فارسي او سنسكريتي او سامي مع ذكر أشباهها في الآرامية والآشورية والعبرية والسريانية . والذين عانوا بحث أسماء هذه العقاقير بدركون الصعوبة في ضبط تلك الأسماء ومدلولاتها .

وقدم الدكتور مايرهوف للكتاب مقدمة بالفرنسية جوّد بها كثيراً ، فبحث عن إجلال العرب لكتب ديوسقوريدس في المفردات الطبية ، وعن جعلها أسماءً لأبحاثهم ، وعن اضافتهم عقاقير كثيرة عليها مما كان يجمله اليونانيون . ثم تكلم على أشهر المؤلفين العرب في مفردات الأدوية كابن ماسرجويه والرازي وابن سينا وابن ماسة والبيروني والغافقي وعبد اللطيف البغدادي وابن الصوري وكودين العطار واسحق بن عمران والادريسي وابن البيطار وغيرهم كثير حتى بلغ داود الأنطاكي من علماء القرن العاشر فعبد الرزاق الجزائري من أطباء القرن الثاني عشر للهجرة . ولم ينس الإشارة الى اصحاب كتب النبات والمعلات وكتب اللغة من غير الاطباء كابي حنيفة الدينوري والأصمعي والقزويني والنويري وابن سيده والفيروزابادي وغيرهم . وفي الحقيقة لقد جاءت هذه المقدمة التي بلغت ٤٠ صفحة كبيرة تاريخاً موجزاً او صورة جميلة لتاريخ النباتات الطبية عند العرب .

وبعد ان ملأ الناشر ١٣ صفحة في حياة ابن ميمون القرطبي وفي مؤلفاته الطيبة ، انتقل الى ذكر النسخة الخطية من كتابه « شرح اسماء العقار » ثم الى الكتب التي استعان بها في تعيين المدلولات لأسماء العقاقير وفي فحص مترادفات وثبوتها . وعندما انتهى من ذلك تناول الأسماء المذكورة واحداً واحداً فلأ في شرحها أكثر من ٢٠٠ صفحة كلها من القطع الكبير ، ثم عقب عليها بفهارس او مسارد عديدة منها واحد بأسماء الأعلام الذين ورد ذكرهم في تضاعيف الكتاب ، وثان في الأسماء اللاتينية اي العلمية للعقاقير ، وثالث في الأسماء الفرنسية ، ورابع في الأسماء الايبيرية اي التي كان العرب يسمونها (عجمية الأندلس) ، وخامس في الأسماء اليونانية ، وسادس في الأسماء المصرية القديمة والقبطية ، وسابع في الأسماء الأكديّة والآشورية ، وثامن في الأسماء العبرية والآرامية ، وتاسع في الأسماء العربية والمعرية وهو بأحرف لاتينية ، وعاشر في الأسماء البربرية ، وحادي عشر في الأسماء السنسكريتية واللهجات الهندية ، وثاني عشر في الأسماء الفارسية .

أما القسم العربي من كتاب الناشر فقد اشتمل على نص كتاب « شرح أسماء العقار » وعلى فهرس في أسماء العقاقير المذكورة فيه . وطبع الكتاب في مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة ، على ان يكون المجلد ٤١ من المذكرات التي تقدم الى المجمع العلمي المصري ، فتشتر برعاية جلالة الملك فاروق .

ولا شك ان ايراز الكتاب الذي نحن في صده على هذا الشكل الجميل ، وبهذه الحلة القشبية ، وشرح مفرداته هذا الشرح العلمي الواسع المضبوط ، هو دليل على ما لبعض المستشرقين من الأيادي البيضاء على لغتنا الضادية .

ولا بد لي من لفت نظر الدكتور مايرهوف المحترم الى بعض ملحوظات لاحظتها أثناء مطالعتي لكتابه الثمين وهي :

أولاً : استنكر ورود لفظة العقار مفتوحة العين في معظم المعاجم العربية (ص ٦٢ من المقدمة) ، ووجب ان تكون بالضم . ولا نرى وجهاً لاستنكاره لأن العرب عندما عربوا الألفاظ الاعجمية أياً كانت أصولها ، لم يتقيدوا بعدم مسها بل غيروا بعض حركاتها حتى بعض أحرفها . والأمثلة على ذلك لا تعد ولا تحصى .

وقد ذكر الدكتور كثيراً منها في تضاعيف كتابه . فيجب اذن قبول هذه الألفاظ على علاقتها . أما مالا يجوز اليوم قبوله فهو ما يخالف العلم الحديث في تلك المعاجم . مثاله خلط بعض المواليد ببعض كتعريفهم الأرز والعرض والصنوبر والسرو الواحد منها بالثاني ، على حين ان كلا منها جنس نباتي مستقل عن الآخر ، وكتعريفهم اللوز بالبندق ، والكرنب بالسلق ، والآس بالرند ، والأوز بالبط الخ . (انظر مقالي في عيوب المعاجم العربية في عدد اكتوبر ١٩٤٠ من المنتطف)

ثانياً . شك الدكتور في لفظة (الثرينة) وهي نوع من الجلبان البري (ص ٤٣ و ٤٢) وظن انها من الكرسة . قلت انها القرينة لا الكرسة فقد ورد في المخصص (م ١١ ص ٦٢) : « ومنها الجلبان واحده جليانة ويقال للبرية منها القرينة ولا تؤكل لمرارة فيها » وهي على ما أظن احد انواع Lathyrus الكثيرة التي تنبت في الطبيعة في بلادنا وفي الأندلس .

ثالثاً : ورد في القاموس التقدمة والتقدمة من اسماء الكزبرة . فلفظة التقدمة اذن ليست خطأ خلافاً لما أشار اليه في حاشية الصفحة ٩١ .

رابعاً : تسمية الجنبه Groseiller بالريباس هو خطأ على ما اعتقد . فالريباس في كتب المفردات هو Rheum ribes ليس غير . وهو معروف تنبته الطبيعة في جبل الشيخ وجبل لبنان . وتجلب اضلاعه فتباع ويصنع منها شراب لذيد . وقد وصف ابن البيطار الريباس وصفاً لا بدع مجالاً للشك فيه ، مع العلم بأن هذه اللفظة تطلق اليوم في الشام على النبات المذكور كما ألمت اليه . ولم اعثر على دليل يجوز اطلاق لفظة الريباس على أنواع Groseiller وهي Ribes rubrum و R. uva crispa و R. nigrum فهذه الأنواع الزراعية الثلاثة لا تزرع في بلادنا ولا تنبت برية فيها . ولم يذكرها فورسكال ولا شوبنفرث ولا بوست ولا تيبول ولا احمد ندا . ومنابتها شمالي اوروبا كما هو معروف . وعندما رجعت ما كتبت عنها في معجمي المسمى (معجم الألفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية) الذي لا يزال مخطوطاً وجدت ان اسم الجنس العلمي Ribes ليس من ريباس العربية بل من Ribs

الدنمركية او Risp السويدية ، على ما رجحه دو كندول في كتابه أصول النباتات الزراعية « ص ٢٢١ من الطبعة الخامسة » .

ويتضح من ذلك ان لفظة الريباس لم يطلقها العرب على هذه الجنبه . وهي في الاصطلاح الحديث تسمى الكشمش وان تكن هذه اللفظة في المعاجم تدل على عنب لا نوى له .

خامساً : جاءت لفظة الكنكر في القاموس (مادة حَرَشَف) مفتوحة الكافين بينهما نون ساكنة فيجب قبولها كما جاءت سواء اكان أصلها الفارسي بالضم ام بالفتح . وهي تدل على البقل الذي نسميه بعامية الشاميين إنكنار وارضى شوكي Artichaut ومن أمثاله الحرشف البستاني وسقوليموس وقنارة وهما يونانيتان .

سادساً : من أسماء التمر الهندي الصُّبَّار بالتشديد والحَوْصَر (القاموس)

سابعاً : اعتقد ان Ononis antiquorum هو الشُّبَّارِق المذكور في المخصص . اما تسمية الشاميين له بالشَّيرِق فسببه اختلاط اللفظتين المتقاربتين على العامة .

ثامناً : وردت لفظة البَيْش بهاء ساكنة في القاموس المحيط وفي غيره . ولم أجدها مفتوحة الهاء . وهذه اللفظة العربية تطلق على نوع او اكثر من أنواع البلوط كما تطلق على المقل مادام رطباً .

تاسعاً : أورد لفظة الشنجار بالفتح على حين ان القاموس قد ضبطها بالكسر عاشراً : ذكر القاقلة غير مشددة اللام . والصحيح انها بلام مشددة . وهي تطلق على انواع من الهال تنسب الى الأجناس الثلاثة Amomum و Aframomum و Elettaria . وقد ذكرت أهم هذه الأنواع في معجمي المخطوط

أما القاقليّ بألف مقصورة فهي نبات آخر ذكره ، فلا وجه إذن للالتباس بين اللفظتين . وهما مفصولتان في المعاجم .

حادي عشر : ذكر الكبابه Piper cubeba بياء مشددة . وفي القاموس الكبابه كسعابة الخ .

ثاني عشر : اورد لفظة الثلثان بالضم (وهي عنب الثعلب *Solanum nigrum*)
 وضبطها الفيروزآبادي بقوله الثلثان كالظربان الخ .
 هذا جانب من الملحوظات التي دوّنتها ولعلي مصيب في ذكرها . ومهما يكن
 فكتاب الدكتور مايرهوف يعد من خير الأعمال التي يأتيها العلماء المستشرقون في
 خدمة لغتنا العربية .

مصطفى الشربلجي

—••••—

كتاب ابن حزم الأندلسي ورسائله في المفاضلة بين الصحابة تأليف الاستاذ سعيد الأفغاني

طبع بالمطبعة الهاشمية بدمشق سنة ١٣٥٩ هـ سنة ١٩٤٠ م ص ٣٥٠ ماعدا التهارس

دلّ ما خلفته القرون ، وغفل عنه الخصوم ، من مصنفات أبي محمد علي بن
 أحمد بن حزم الظاهري أنه كان إماماً عظيماً ، مستقلاً مستدلاً ، معنّاً مفنّاً ،
 قويّ المعارضة ، شديد المعارضة ، بل كان مجدداً لعلوم الاسلام في القرن
 الخامس ، ولكنه رحمه الله تعالى — على سعة علمه ، وشدة استحضاره ، وقوة
 استدلاله ، — كانت « تقع له المسائل المحررة ، والمسائل الواحية » كما نال الحافظ
 الذهبي ، فقد أخطأ في أول مسألة ذكرها في أول كتابه المحلى الذي قال فيه سلطان
 العلماء العزّين عبد السلام كلمته المشهورة : « مارأيت في كتب الاسلام من العلم ،
 مثل المحلى لابن حزم ، وكتاب المغنى للشيخ موفق الدين » — فجعل كلمة التوحيد
 دليلاً على موجد الكون وعلى نفي تعدّد الذات والتركيب ، كما تراه في (ص
 ٤٦٣) وانما يصح هذا في تفسير سورة الإخلاص ، وآيات غيرها لا في كلمة الشهادة ؛
 أما معنى كلمة (إله) في لغة العرب وفي بيان القرآن ، فهو المعبود ، ولفظ الجلالة

علم على المعبود بحق ، فبين تعالى في هذه الجملة (لا إله الا الله) انه لا يستحق العبادة ، الا من تفرد بالايجاد والامداد ، وأهل الجاهلية مؤمنون بوجوده معترفون له بهذا التفرد ، فأقام عليهم الحجة بما أقروه من انقراذه بالخلق والتدبير ، على ما أنكروه من تخصيصه بالعبادة ، فكيف خفي هذا المعنى على امام أهل الظاهر ؟ أما الكتاب فيدخل في قسمين (الأول) في حياة ابن حزم ، والثاني في مفاضلته بين الصحابة ، وفي الأول الكلام على عصره ، وأصله ونشأته وشبابه ، وطلبه وعمله ومصنفاته ، ومذهبه وأدبه ووجه ، وأخلاقه ومزاجه وحياته بين الناس ، ووفاته ، وهذه الترجمة — بقلم الأستاذ الأفغاني — قد استغرقت (١٥٠) صفحة وأما رسالة المفاضلة — التي هي القسم الثاني — فهي مجردة من كتاب « الفصل » المطبوع المشهور ، ومقابلة على نسخة خطية محفوظة في المكتبة الظاهرية ، وقد أشير الى ما فيها من اختلاف وزيادة وتقص ، وهي تشمل على ثلاثة أبواب وخاتمة (الأول) في بيان الفضل والمفاضلة وعرض الآراء المختلفة ، (والثاني) في فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم على سائر الصحابة ، وفيه رد شبه واعتراضات على هذا التفضيل ، (والثالث) في أن أبا بكر الصديق أفضل الصحابة بعد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه تفضيل الخلفاء الراشدين على ترتيبهم في الخلافة ، (وأما الخاتمة) ففي بيان تسوية الاسلام بين الناس كافة ، وفيه بحث في القرابة ومناقشة في تفضيلها .

وقد زين الكتاب بتعليقات مفيدة ، وذيل بتراجم الأعلام الوارد ذكرهم في الرسالة ، وختم بفهارس في الأعلام والجماعات والأماكن والكتب والآيات والأحاديث والأشعار والأيام المشهورة والموضوعات ومن ذلك كله تعلم ما بذله الأستاذ الناشر من جهد جهيد ، ووقت ثمين ، أثابه الله تعالى .

محمد بهجة البيطار



فهرس الجزء الاول والثاني من المجلد السابع عشر

الصفحة	
٣	اعضاء المجمع العلمي العربي
٤	 = = = = = الراحلون
٦	هل تمدنا ؟ للأستاذ محمد كرد علي
١٥	ابو العلاء المعري والحشر = سليم الجندي
٢٩	المرأة في عهد النبوة وفي عصرنا الحاضر = محمد بهجة البيطار
٤٨	الطير مآح بن حكيم الطائي = خليل مردم بك
٥٧	كلمة (فند شمع) = عبد القادر المغربي
٦٣	المكترون من التأليف والمجودون فيه = محمد كرد علي
	مخطوطات ومطبوعات
٧٨	النخيرة في علم الطب لثابت بن قرة
٨٢	المختار للشيخ عبد العزيز البشري
٨٤	السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي
٨٩	شرح اسماء العقار لابن ميمون القرطبي
٩٤	ابن حزم ورسالة في المفاضلة بين الصحابة

—••••—